إبداعات عالمية

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

351

hamza mizou

روض الأدب

• مختارات قصصية من الأدب الأمريكي

تأليف: أو. هنري

ترجمة وتقديم: محمد ناصر صلاح

مراجعة وتقديم: د. عبدالمحسن دشتي

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

ديسمبر 2004

الفنـانة : سوسن عبدالله

الزهرة - كولاج - ٨٠ × ٧٠ سم

١٩٨١

المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

روض الأدب

مختارات قصصية

تأليف: أو. هنري
ترجمة وتقديم: محمد ناصر صلاح
مراجعة وتقديم: د. عبدالمحسن دشتي

العدد 351 ديسمبر 2004

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي13147
دولة الكويت

ردمك: X - ١٥٠ - ٠ - ٩٩٩٠٦
ISBN 99906 - 0 - 150 - X

روض الأدب

مختارات قصصية

العنوان الأصلي :

GARDEN OF LITERATURE

Selected Short Stories

Written By: O.Henry

عن دار النشر

YOHAN PUBLICATIONS, INC.

14 - 9 Okubo 3 - chome, Shinjuku-ku, Tokyo, Japan

Printed in Japan

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . 2004م

إبداعات عالمية - العدد 351

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(١٩٢٣ - ١٩٩٠)

المقدمة

ما زالت المكتبة العربية تشكو افتقارها إلى كتابات «أو. هنري»، الذي عُرِفَ كمؤلف له دوره الريادي في ميدان الأدب الإنساني، إلا أنه للأسف مازال ينتظر حقه، في الترجمة العربية لأعماله، حيث أتت القصص المترجمة له، قليلة ومتفرقة ومحدودة الانتشار.

إن الروح الإنسانية العميقة التي تتميز بها قصص هذا الأديب، تفرض على القارئ أن يتعامل معها، لا باعتبارها مادة تسلية، يملأ بها وقت فراغه، بل باعتبارها مادة تثقيف فكري، وتطوير خلقي، وتوجيه حياتي، لا بد منها لكل من يعتقد أن للحياة الإنسانية رسالة.

إنها تحوي العبرة التي يستنير بها الفرد، كبيرا كان أم صغيرا، رجلا كان أم امرأة، آسيويا كان أم أفريقيّا، ذلك أنها تنقل قصصا من صميم الواقع، وتكشف خبايا النفس الإنسانية، خاصة خلال حالة الأزمة، أو تجربة المعاناة. وسوف يجد فيها كل من يؤمن بالإنسان ضالته المنشودة، بغض النظر عن معتقده المذهبي.

وفوق هذا كله، لا بد من القول إن بين سطور «أو. هنري» تعيش أمريكا، «أمريكا» التي أحبها، كما لم يحبها إنسان. «نيويورك» التي كان يتمنى أن يمضي في كل شارع من

شوارعها عمرا، أحبها كما هي، ورسمها كما هي، لم يحاول أن ينقل القارئ إلى عوالم متخيلة، أو يدهشه بما لا وجود له. من بين زحمة المارة، ووراء الأبواب المقفلة، ومن ذروة العشق، وصدق المعاناة، خرجت كتاباته.

وإذا كان من الصحيح، أن ثمة علاقة تربط ما بين حياة الكاتب وأدبه، فإن «أو. هنري» أفضل وأوضح مثال على هذه العلاقة، لقد عاش أولا وكتب ما عاشه فيما بعد.

المترجم

مقدمة المراجع

«أو. هنري» هو الاسم الأدبي لكاتب القصة الأمريكي الأصل «ويليام سيدني بورتر». ولد أو هنري - وهو من أشهر وأفضل كتاب القصة القصيرة في الولايات المتحدة الأمريكية - في عام ١٨٦٢ في ولاية كارولينا الشمالية، حيث أمضى سنوات طفولته، ثم انتقل بعدئذ - عندما بلغ العشرين من عمره - إلى ولاية تكساس واستقر أخيرا في ولاية نيويورك، حيث توفي هناك في عام ١٩١٠ عن عمر يناهز السابعة والأربعين.

لقد امتهن «أو. هنري» في حياته مهنا عدة. ابتدأ بالعمل في صيدلية تعود إلى خاله، ثم مزارعا في مزرعة للماشية تعود إلى عائلة هول، وهي عائلة تربطها علاقة قوية بعائلة بورتر، ثم عمل رساما للكاريكاتير، وأخيرا محاسبا في أحد المصارف، وإلى جانب ذلك، أنشأ جريدته الأسبوعية «الصخرة المتدحرجة»، لكنها لم تلق نجاحا يذكر.

ومن يتتبع قصص «أو. هنري» يرَ بوضوح كيف ألقت كل هذه المهن بظلالها على أسلوبه، حيث تلونت كل قصصه بتفاصيل واقعية استمدها من تجاربه العملية في الولايات المتحدة الأمريكية، التي عاش فيها، وأخص بالذكر ولايتي تكساس ونيويورك.

إن مجموع ما كتبه «أو. هنري» من قصص قصيرة يصل إلى

ستمائة قصة، جمعت كلها ونشرت في عام ١٩١٧ في أربعة عشر بلدا، وكتب في عام ١٩٠٤ فقط ما يقارب خمسا وستين قصة قصيرة، وأتبعها في عام ١٩٠٥ بخمس قصص قصيرة أخرى من بينها قصة «هدية المجوس»، التي استهل بها مجموعة «روض الأدب» التي نحن بصددها، إلا أنه - وكأغلب النابغين - لم تصل شهرته إلى الآفاق إلا بعد رحيله عن هذا العالم، إذ إنه الآن يحتل - ككاتب أمريكي كلاسيكي - حيزا ثابتا وفريدا في الأدب الأمريكي.

لقد ترجمت قصص «أو. هنري» إلى الكثير من اللغات الأجنبية، كالفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية والسويدية والنرويجية واليابانية والصينية والروسية، إلا أنها لم تنل حظا وافرا بين تراجم اللغة العربية.

يلاحظ قارئ قصص «أو. هنري» كثرة الأزمنة والأمكنة القصصية عنده كثيرة ومتعددة، إلا أن تكساس ونيويورك تنالان دائما نصيب الأسد. وغالبا ما تلقي قصصه الضوء على حياة عامة الناس البسطاء، وتحاول بطريقة أدبية شائقة أن تبين للقارئ أن الإنسان البسيط الكادح المتواضع يجب أن يكون محط إعجاب الآخرين.

وعلى الرغم من أن شخصيات «أو. هنري» تدور في أحيان نادرة حول أصحاب الملايين أو الشرطة مثلا، فإن قصصه غالبا ما تحاك حول شخصيات من الطبقات الاجتماعية الدنيا،

مثل البائعات في المتاجر واللصوص ورعاة البقر والمتسولين وبائعات الهوى وشخصيات أخرى متنوعة.

إنه لمن الجدير ذكره أن لأسلوب «أو. هنري» نمطا فريدا في الكتابة، فأسلوبه يأتيك كنسمة باردة عطرة، وك «ثرثرة على النيل»، وهو كثيرا ما يستعين باللهجة العامية أو الدارجة، حيث تتسم قصصه بالبساطة والوضوح، ويتخللها - بين الحين والآخر - الكثير من التورية والتلاعب اللفظي، بغرض تعزيز روح الفكاهة التي غالبا ما تتحلى بها قصصه. وما يميز أسلوب «أو. هنري» أيضا هو أنه مليء بتعبيرات من النوع التي غالبا «ما تقال على انفراد»، كأنه يشي بها إلى القارئ بنغمة ودية صادقة. وإضافة إلى ذلك، فإن التلميحات الأدبية التي يصوغها أو هنري - بغرض الفكاهة - هي سمة شائعة في كتاباته، كما أنه كثيرا ما يشير في كتاباته إلى كتاب وأدباء آخرين. ومن العناصر الجلية في كتابات أو هنري - أيضا - العواطف الجياشة وشتى أنواع الفكاهة والسخرية الأدبية، إلا أنه في قصصه الاستنباطية يحاول دائما أن يلقي الضوء على مواضيع تتسم بالجدية إلى حد كبير.

غير أن السمة الأساسية التي يتفق عليها جميع النقاد في تحليل البناء القصصي لجميع قصص «أو. هنري» هي أنه يعتمد بشكل كبير وأساسي على عناصر النهاية المفاجئة، وغير المتوقعة، كما هي الحال في كل قصص مجموعة «روض

الأدب» التي بين أيدينا. إن هذه الحيل والنهايات غير المتوقعة، بالإضافة إلى عنصر التشويق، هي التي تتلاعب بالتوقعات الأدبية للقارئ.

وأخيرا، فقد أجمع النقاد - بلا استثناء - على أن «أو. هنري» هو أحد أعظم كتاب القصة القصيرة في الأدب الأمريكي الكلاسيكي. يقول أحد النقاد: «إنه سأل يوما ما - خلال ترحاله - أحد المزارعين البسطاء في الغرب الأوسط من الولايات المتحدة الأمريكية إن كان يعرف فن هو أو هنري...؟ فرد عليه المزارع «إنه الأدب... الأدب الحقيقي».

د. عبدالمحسن دشتي

مقدمة الطبعة اليابانية

«أو. هنري» واسمه الحقيقي «ويليام سيدني بورتر» ولد في «غرينز بورو»، في «كارولينا الشمالية» في ١٨٦٢. وأمضى فيها سني شبابه، كاتبا في مستودع أدوية، ثم أمضى بعض الوقت في «تكساس»، عاملا في المزارع الكبيرة، والمصارف والصحف.

تعرض بعد ذلك للسجن بتهمة سوء الائتمان، وأمضى في السجن ثلاث سنوات، بدأ فيها كتابة قصصه القصيرة، والتي أدت إلى اشتهاره، وما أن غادر السجن، حتى انتقل إلى العيش في «نيويورك»، حيث أخذ يكتب بهمة عالية.

إن أشهر ما كتبه من قصص، هي تلك التي تدور أحداثها في «نيويورك» بين الناس العاديين، المزدحمين في الشوارع. وقد قال ذات مرة: «أحب أن أعيش في كل شارع من شوارع نيويورك عمرا. لكل بيت فيها يضم بين جدرانه، قصة مؤثرة». كان قد بلغ الأربعين من عمره، حين ابتدأ حياته هناك، وطوال السنوات الثماني التالية المتبقية من عمره، إلى أن توفي في عام ١٩١٠، كان يكتب باستمرار مصورا حياة الناس في تلك المدينة.

لقد كان معلما في فن القصة القصيرة، يجلس وراء نافذة غرفته على مقربة من «ميدان ماديسون»، في «نيويورك، يراقب الاستعراض البشري المار أمامه، ثم يحيك قصصه حول

المشردين الباحثين عن مأوى، والنادلات البسيطات، وفتيات المتاجر، والشرطي والثمل، وأمين المستودع البسيط، والمحتال، وبائعة الهوى.

لقد وجد في الأحداث العادية للحياة اليومية لمدينته «بغداد - على الطريق الفرعي»، ما يثير العاطفة، ويشحذ الخيال. إن قصصه القصيرة تشكل جزءا صميميا من الأدب الأمريكي.

هدية المجوس

دولار واحد، وسبعة وثمانون سنتا هي كل ما هنالك. منها ستون سنتا، كانت بالـ «بني»، الذي كان يدخر بالواحد، والاثنين، كل مرة، عن طريق «عصر» البقال، والخضري، واللحام، حتى بدت وجنتا المرأة تلتهبان، تحت لسع سياط الاتهام الصامت بالشح، قامت «ديلا» بعد النقود ثلاث مرات متتالية.

«دولار» واحد، وسبعة وثمانون سنتا، وغدا هو يوم عيد الميلاد.

من الواضح أنه لم يكن ثمة ما يمكن عمله، باستثناء التساقط على تلك الأريكة الصغيرة البالية، والنحيب. وهذا ما فعلته «ديلا». وفيه ما يبعث الحكمة الأخلاقية، التي تقول إن الحياة تتكون من شهقات، ودموع، وابتسامات، وإن الدموع هي صاحبة القول الفصل فيها.

وفي حين تغرب سيدة البيت تدريجيا، منتقلة من المرحلة الأولى، إلى الثانية، دعنا نلق نظرة إلى ذلك البيت: شقة مفروشة، بـ «٨» دولارات في الأسبوع. لا تستعصي على الوصف، إلا أنه يمكن القول إن منظرها، كان يستدعي فريق إغاثة المتسولين.

أسفل، في المدخل، كان ثمة صندوق رسائل، لم ترد إليه أي رسالة أبدا، وزر جرس كهربائي، ما كان له أن يتلقى لمسة واحدة، من إصبع إنسان. وكانت هناك أيضا بطاقة تحمل اسم «السيد جيمس ديلينجهام يونج».

كان اسم «ديلينجهام» قد شاع إبان فترة ازدهار سابقة، وكان حامل مثل هذا الاسم يتسلم مبلغ ٣٠ دولارا في الأسبوع، أما الآن،

وقـــد انكمش الدخل إلى ٢٠ دولارا، أخـــذت حــــروف الاسم «ديلينجهام» تبدو كأنها قد طُمست، أو كانت تفكر جديا بالتقلص إلى حرف «د» متواضع، وغير متكلف.

لكن، في كل مرة يعود فيها السيد «جيمس ديلينجهام يونج» إلى منزله ويبلغ شقته في الأعلى، تستقبله زوجته السيدة جيمس ديلينجهام يونج (التي سبق تقديمها باسم ديلا) بعناق حار وهي تهتف باسم «جيم».

انتهت «ديلا» من عويلها، وأخذت تزين وجنتيها بمسحوق التجميل، ثم وقفت وراء النافذة، محدقة والكآبة تعلو ملامحها، في قطة رمادية اللون تسير بمحاذاة سياج رمادي اللون في ساحة خلفية رمادية. غدا هو يوم عيد الميلاد، ولم يكن لديها سوى «دولار» واحد، وسبعة وثمانين سنتا، لتشتري هدية لـ «جيم»، كانت تدخر كل بني يمكنها ادخاره طوال أشهر، وهذه هي النتيجة: النفقات أكثر بكثير مما كانت تتوقع. والنتيجة دائما تأتي كذلك. فقط ١,٨٧ دولار، لشراء هدية لـ «جيم»، «جيم» رجلها، كم من الساعات السعيدة أمضت، وهي تخطط لشراء شيء جميل له، شيء جميل، ونادر، وقيم، شيء يكون جديرا، نوعا ما، بأن يكون من ممتلكات «جيم».

كان هناك مرآة طولية بين نوافذ الغرفة، ربما تكون أنت قد شاهدت مرآة طولية، في إحدى شقق الـ ٨ دولارات، من الممكن لشخص نحيف جدا، وخفيف الحركة تماما، أن يقيم مظهره في المرآة، وذلك عن طريق مراقبة انعكاس شكله بتتابع سريع لشرائح طولية. و«ديلا»، بقوامها الأهيف، أتقنت هذا الفن.

فجأة، استدارت «ديلا»، ابتعدت عن النافذة، لتقف أمام المرآة. كانت عيناها تلتمعان، وخلال عشرين ثانية فقط بدا وجهها شاحبا بلا لون، بحركة سريعة، جذبت شعرها إلى الأسفل، وتركته يسقط على امتداد طوله.

الآن، ثمة شيئان يعتز بهما الزوجان اعتزازا كبيرا: الأول ساعة «جيم» الذهبية، التي تعود إلى أبيه، وقبل ذلك جده. والثاني كان شعر «ديلا». ولو تأتى لملكة سبأ أن تعيش في الشقة المقابلة، لأرخت «ديلا» شعرها خارج النافذة يوما ما حتى يجف، فقط لتضارب على مجوهرات وهدايا جارتها، فخامة الملكة. ولو كان للملك سليمان أن يكون الحاجب، مع كل كنوزه المكدسة في القبور، لعمل «جيم» على إخراج ساعته كلما مر سليمان فقط، ليستمتع «جيم» بمشاهدة الملك سليمان وهو يشد شعر لحيته حسدا.

إذن، فقد سقط شعر «ديلا» الجميل، على طول قوامها، بتموجه وبريقه، كشلال من المياه ذات اللون البني، يبلغ ما دون ركبتيها، بحيث بدا كـ حلة تكسو قوامها كله.

بعدئذ، رفعت شعرها، بسرعة وبعصبية، إلى الأعلى، وما أن مرت عليها دقيقة من الارتباك والذهول، حتى سقطت دمعة أو اثنتان على البساط الأحمر البالي.

ارتدت معطفها البني القديم، وقبعتها البنية القديمة. وبحركة رشيقة، وعينان لا تزالان تتألقان، اندفعت خارج البيت، وهبطت السلم باتجاه الشارع.

وحيث وقفت، كانت تنتصب لافتة كُتب عليها: «السيدة سوفروني، منتجات من الشعر، من جميع الأصناف». سرت في

جسدها رعدة، ولكنها استجمعت قواها، واندفعت إلى الدور الأول تلهث، وبشق النفس استطاعت أن تنظر إلى السيدة «سوفروني»، بجسدها الممتلئ، وبياضها الشديد، وبرودة طبعها.

بادرت «ديلا» بالسؤال: هل لك أن تشتري شعري؟

أجابت السيدة: «إنني أشتري الشعر. انزعي قبعتك، ودعينا نلق نظرة عليه ولنر كيف يبدو».

فتدفق الشلال البني.

قالت السيدة: رافعة بيد خبيرة، بعضا من تموجاته «عشرون دولارا».

أجابت «ديلا»: إليَّ بها.

وطوال الساعتين التاليتين، كانت تحلق محمولة على أجنحة وردية. ما من بلاغة يمكنها أن تعبر عن حقيقة ما كان يجري. لقد كانت تجوب المتاجر بحثا عن هدية لـ «جيم».

أخيرا، وجدتها. من المؤكد أنها كانت قد صنعت من أجل «جيم»، وحده. لم تكن هناك ما تشبهها في أي من المتاجر، فقد قلبتها جميعها رأسا على عقب. كانت عبارة عن سلسلة من البلاتين، بسيطة وبريئة في تصميمها، صادقة في ادعائها بأن قيمتها تعود إلى عنصرها وحده - لا إلى تزيين خادع - كما يتعين على جميع الأشياء الجيدة أن تكون. حتى أنها كانت جديرة بالساعة. ما أن وقعت عيناها عليها، حتى شعرت كأنها صنعت خصيصا لـ «جيم». إنها من طرازه، هادئة وذات قيمة، وصف ينطبق على كلتيهما. أخذوا منها مقابلها واحدا وعشرين دولارا، وهرعت إلى البيت بالـ ٨٧ سنتا المتبقية.

بتلك السلسلة، وهي تحمل ساعته، يحق لـ «جيم» أن يتلهف على معرفة الوقت، في أي شركة. وعلى رغم أن الساعة كانت عظيمة، إلا أنه كان ينظر إليها خفية، بسبب الحزام الجلدي القديم، الذي وضعه بدلا من سلسلة.

عندما وصلت «ديلا» إلى بيتها، لم تبق نشوتها سوى فرصة ضئيلة للتروي والتعقل. نزعت الأساور التي تلتف حول معصميها، وأشعلت فرن الغاز، وأخذت تعمل على إصلاح ما أفسده حب ازداد سخاء، وهو أمر يشكل مهمة شاقة، يا أصدقائي الأعزاء، تليق بديناصور. وفي أربعين دقيقة، كان رأسها قد بدا مكسوا بخصل قصيرة متلاصقة من الشعر، أكسبتها مظهرا فريد الشبه بتلميذ كسول. نظرت إلى انعكاس صورتها في المرآة نظرة طويلة، متأنية، ناقدة. حدثت نفسها قائلة: «إن لم يقتلني جيم، إثر نظرته الأولى، فسوف يقول: انني أبدو كإحدى فتيات جوقة جزيرة «كوني»، لكن ماذا كان بوسعي أن أفعل - آه! ماذا كان بوسعي أن أفعل بـ دولار واحد وسبعة وثمانين سنتا؟

وفي الساعة السابعة، كانت القهوة جاهزة، والمقلى على الموقد ساخنا، ومهيئا، لطبخ شرائح اللحم.

لم يسبق لـ «جيم» أن تأخر أبدا، ضمت «ديلا» يدها على سلسلة الساعة، وجلست على زاوية المائدة، قرب الباب، الذي اعتاد على الدخول منه. بعدئذ سمعت وقع خطواته على الدرجة الأولى من السلم، بعيدا في الأسفل، فكسا الشحوب وجنتيها، لبرهة من الزمن. كانت قد اعتادت على ترديد أدعية قصيرة

صامتة فيما يخص أبسط الأمور اليومية، والآن همست «أرجوك يا رب، اجعله يعتقد أنني لا أزال جميلة».

فُتِح الباب، ودخل «جيم»، وأغلق الباب وراءه، بدا نحيفا وجادا. يا له من مسكين، اثنان وعشرون ربيعا فقط ويحمل على كتفيه عبء عائلة، إنه بحاجة إلى معطف جديد، إنه لا يلبس حتى قفازا...»، تسمر كما يتسمر كلب الصيد عندما يشم رائحة طائر السماني. استقرت عيناه على «ديلا»، وبدا عليهما تعبير لم تستطع أن تفهمه، وشعرت إزاءه بالرعب، لم يكن الغضب، ولا الدهشة، ولا عدم الرضا، ولا الرعب، ولا أيا من المشاعر، التي كانت قد أعدت نفسها لها. لم يفعل شيئا، سوى أنه حملق فيها ثابتا على ذلك التعبير الغريب، الذي كسا وجهه.

تسللت من خلف المائدة، ومشت إليه. هتفت به: «جيم، حبيبي. لا تنظر إلي بتلك الطريقة. لقد قصصت شعري، وبعته، لأنني لم أحتمل أن يمر عيد الميلاد من دون أن أقدم لك هدية. سوف ينمو من جديد، لن تبتئس، أليس كذلك؟ كان لزاما علي أن أفعل ذلك. إن شعري ينمو بسرعة فائقة، قل «عيد ميلاد سعيدا» يا جيم، ودعنا نفرح. إنك لا تعلم أي هدية جميلة، فائقة وأنيقة اشتريت من أجلك. سأل بمشقة، كما لو أنه لم يبلغ تلك الحقيقة المستجدة بعد، حتى إثر أكبر مجهود عقلي ممكن، لقد قصصت شعرك؟ فأجابت قصصته، وبعته. الا تحبني الآن كما كنت تحبني من قبل على أي حال؟ إنني أنا من دون شعري، ألست أنا؟ وباستغراب، جال «جيم» بنظره في انحاء الغرفة، قال لها بشيء من السذاجة: «أتقولين إن شعرك لم يعد هو شعرك الآن؟

أجابت «ديلا»: لا حاجة لك للبحث عنه.

وواصلت بجدية عذبة ومفاجئة: «لقد بيع، إنني أقول لك - بيع، وذهب أيضا. إنها عشية عيد الميلاد، يا حبيبي. كن طيبا معي، لأنه ذهب خصيصا من أجلك. ربما كان من الممكن عد شعر رأسي، لكن ما من أحد يمكنه أن يعرف قدر حبي لك. هل أضع شرائح اللحم يا جيم؟» سرعان ما أفاق «جيم» من غفلته. طوق امرأته بذراعيه.

ولنلق، لثوان عشر، نظرة متفحصة ومتعمقة على أمر ما مستقل، في الجانب الآخر. ثمانية دولارات في الأسبوع، أو مليون في السنة... ما الفرق؟ عالم الرياضيات أو الرجل الفطن سوف يخطئ في الإجابة. لقد أحضر المجوس هدايا قيّمة، إلا أن تلك لم تكن بينها. وهذا البيان الغامض سوف يجد توضيحه فيما بعد.

جذب «جيم» رزمة من جيب معطفه، وألقى بها فوق المائدة، قائلا «إياك أن تخطئي، يا ديلا، بشأني. لا أظن أن هناك، في قصة شعر، أوحلاقة، أو استعمال «شامبو»، ما يمكنه أن يقلل من حبي لفتاتي، لكنك إذا ما فتحت تلك الرزمة، يمكنك أن تري لماذا ذُهلت في البداية».

وبأنامل بيضاء رشيقة، أزالت الشريط والورق. بعدها انطلقت صرخة جذلى، وبعدها، للأسف، تبدلٌ أنثوي سريع إلى الدموع والعويل بهستيرية، الأمر الذي تطلب من سيد البيت أن يستخدم كل قوى التهدئة التي يملكها.

ذلك أن هناك تسترخي الأمشاط - طاقم الأمشاط، الجانبية والخلفية، التي كانت تشاهدها ديلا في واجهة أحد المتاجر في

شارع «برودواي»، والتي طالما استحوذت على تفكيرها منذ فترة طويلة. أمشاط جميلة، صدفة سلحفاة خالصة، بحواف مرصعة بالجواهر، اللون نفسه المتمم للشعر الجميل الذي اختفى. كانت تعرف أنها أمشاط مكلفة، وكانت تتمناها، وتتوق إليها، من دون أن يراودها أي أمل بامتلاكها. والآن، قد أصبحت ملكا لها، إلا أن خصل الشعر التي كان يجب أن تتزين بالزينة المشتهاة قد ذهبت.

لكنها ضمتها إلى صدرها، واستطاعت أخيرا أن ترفع بصرها بعينين غائمتين وابتسامة، وتقول «شعري ينمو بسرعة شديدة، يا جيم».

ثم قفزت «ديلا» كقطة صغيرة لُسِعت، وهي تصرخ «أوه، أوه!».

لم يكن «جيم» قد رأى هديته الجميلة بعد. وبلهفة، حملتها إليه على كف مفتوحة. وبدا المعدن الثمين البليد، كما لو كان يعكس بلمعانه، روحها المشرقة والمتأججة.

أليست أنيقة يا جيم؟ لقد جبت كل أنحاء المدينة من أجل العثور عليها. ومنذ الآن فصاعدا، سوف يكون عليك أن تحاول معرفة الوقت مائة مرة في اليوم. أعطني ساعتك، فإني أريد أن أرى كيف تبدو والسلسلة عليها».

وبدلا من إجابتها إلى طلبها، انكفأ جيم على الأريكة، واضعا يديه تحت مؤخرة رأسه، وابتسم. وخاطبها قائلا: «يا ديلا، لندع هديتي عيد الميلاد جانبا، حتى يمر بعض الوقت. إنهما أجمل من أن نستعملهما في الوقت الحاضر. لقد بعت الساعة في سبيل الحصول على المال اللازم لشراء أمشاطك. والآن يفترض أن تضعي شرائح اللحم على المائدة».

كان المجوس، كما تعلم، حكماء - حكماء إلى حد بعيد - أحضروا الهدايا إلى الطفل في المزود. لقد اخترعوا فن تقديم هدايا عيد الميلاد. ولكونهم حكماء، أتت هداياهم حكيمة، من دون شك، ذلك أنها كانت تتميز بإمكان التبادل، في حال ازدواجها. وهنا قد رويت لك رواية ضعيفة، حكاية قليلة الأحداث، عن صغيرين أحمقين في شقة، ضحيا تضحية غير حكيمة أبدا، أحدهما من أجل الآخر، بأعظم ما في بيتهما من كنوز. لكن، وبكلمة أخيرة لمن في هذه الأيام من حكماء، علينا أن نقول إنه من بين كل من يقدمون الهدايا، كان هذان الاثنان الأكثر حكمة. من بين كل من يقدمون الهدايا ويتلقونها، إنهما بطريقتهما تلك، كانا الأكثر حكمة، وفي كل الأماكن، إنهما الأكثر حكمة. إنهم المجوس.

بعد عشرين عاما

سار الشرطي المناوب على طول الشارع بقوة وعزم، والقوة كانت سلوكا اعتياديا عنده، لا يهدف إلى التباهي والاستعراض، ذلك أنه لم يكن هناك سوى قلة من الناس. كانت الساعة تكاد تبلغ العاشرة ليلا، إلا أن هبات الرياح شديدة البرودة، التي تنذر بالمطر، كادت تفرغ الشوارع من الناس تماما.

وعبر سيره، كان الشرطي - بهيئته الحازمة وبشيء من الكبرياء - يحاول التأكد من إحكام إغلاق الأبواب، ويدير عصاه بحركات فنية معقدة، ويلتفت بين الفينة والأخرى بعينه الساهرة على طول الطريق المسالمة. لقد قدم الشرطي صورة إيجابية لحارس السلام. تلك الناحية، كانت تفرغ من عملها، في ساعة مبكرة من ساعات اليوم، وبين الفينة والأخرى يمكنك أن تشاهد أضواء متجر لبيع السيجار، أو ركن عشاء ساهرا، لكن معظم الأبواب كانت تعود إلى مكاتب أعمال، وكانت قد أُغلقت منذ وقت طويل.

وعندما بلغ ما يقارب منتصف طريقه نحو بناية معينة، أبطأ الشرطي سيره فجأة، في مدخل متجر معدات مظلم، اتكأ على الجدار رجل، واضعا بين شفتيه سيجارا لم يشعله بعد، وما أن سار إليه الشرطي، حتى تحدث بسرعة وقال مطمئنا: «كل شيء على ما يرام، أيها الشرطي. ما من شيء سوى أنني أنتظر صديقا، إنه موعد حددناه قبل عشرين عاما، إنه يبدو لك أمرا

مضحكا بعض الشيء، أليس كذلك؟ حسنا، سأشرح لك، إن كنت تريد أن تتأكد من أن الأمر كله لا تشوبه شائبة... قبل مدة طويلة، كان هناك مطعم مكان هذا المتجر... مطعم «جو الكبير»، فرد عليه الشرطي: «كان قائما إلى ما قبل خمس سنوات، ثم أُزيل».

أشعل الرجل الواقف في المدخل عود ثقاب، وأشعل «السيجار»، وعلى ضوء الاشتعال، بدا وجه الرجل شاحبا، بفكه المعتدل، وعينيه البراقتين، وندبة صغيرة بيضاء، قرب حاجبه الأيمن، كان مشبك رباط عنقه عبارة عن ألماسة كبيرة، موضوعة بشكل غير عادي.

قال الرجل: «الليلة يكون قد مر عشرون عاما، لقد تناولت طعام العشاء هنا في مطعم جو الكبير مع جيمي ويلز، أفضل أصدقائي، وأحسن شبان العالم، لقد تربينا معا أنا وهو، هنا في نيويورك، تماما كأخوين حميمين، كان عمري ثمانية عشر عاما، و«جيمي» كان عمره عشرين، في الصباح التالي كان علي أن أنطلق إلى الغرب، لكي أجمع ثروة العمر، لم يكن بمقدورك أن تجر جيمي إلى خارج نيويورك، ذلك أنه كان يعتقد أنها المكان الوحيد على وجه الأرض، حسنا اتفقنا تلك الليلة على أن نلتقي هنا ثانية، بعد عشرين عاما بالضبط، من ذلك اليوم وتلك الساعة، بغض النظر عما قد تكون عليه ظروفنا، أو قدر المسافة التي علينا أن نقطعها، لقد حسبنا أننا في عشرين عاما كل منا لا بد أن يكون قد تبين قدره، وجمع ثروته، بغض النظر عما ستكون عليه أقدارنا».

علق الشرطي قائلا: «هذا يبدو شائقا جدا، رغم أنها مدة طويلة جدا بين اللقاءين، هذا ما يبدو لي، ألم تسمع عن صديقك منذ أن غادرت؟».

أجاب الرجل: «حسنا، نعم، تبادلنا الرسائل لبعض الوقت، لكن بعد سنة أو اثنتين، فقد كل منا طريق الآخر.

إنك تعلم أن الغرب فكرة كبيرة جدا، وقد واصلت التجوال في ربوعه، بحيوية كبيرة، لكنني أعلم أن جيمي سوف يلاقيني هنا إن كان لا يزال حيا، لأنه كان دائما أكثر شبان العالم صدقا وإخلاصا، لن ينسى أبدا، لقد قطعت ألف ميل حتى أقف في هذا المدخل الليلة، والأمر يستحق هذا العناء، إن ظهر صديقي القديم.

أخرج الرجل ساعة أنيقة، غطاؤها مرصع بماسات صغيرة، وقال: «العاشرة إلا ثلاث دقائق... كانت العاشرة تماما حين افترقنا هنا على باب المطعم».

سأله الشرطي: «حققت إنجازا جيدا في الغرب، أليس كذلك؟».

أجابه الرجل «بوسعك أن تراهن على ذلك وأنت مطمئن! إنني آمل أن يكون جيمي قد حقق ما يعادل نصف ما حققته من نجاح، كان على شيء من التراخي، رغم أنه كان صاحبا جيدا، لقد كان علي أن أنافس أذكى رجال المال، حتى أجمع ثروتي. إن المرء ليغرق في البلادة هنا في نيويورك، حتى أنه ليحتاج إلى أن يشحذ الغرب، ما لديه من إمكانات».

أدار الشرطي عصاه، وسار خطوة أو اثنتين، قائلا: «سوف أتابع سيري، وآمل أن يأتي صديقك إليك سالما، هل ستنتظره حتى الموعد المتفق عليه بالضبط؟».

- «قطعا لا، سوف أمنحه نصف ساعة، من التأخير، على الأقل، إذا كان جيمي لا يزال حيا يرزق، فسوف يكون بطرفي خلال ذلك الوقت... إلى اللقاء أيها الشرطي».

أجابه الشرطي: «تصبح على خير، أيها السيد»، وتابع **نوبة** حراسته، مواصلا التأكد من إغلاق الأبواب التي يمر بها.

تساقط رذاذ خفيف بارد من المطر، وأخذ هبوب الريح يشتد ويقوى، وأسرع المارة القليلون في تلك الناحية، وقد سيطر عليهم جو من الكآبة والصمت، رافعين ياقات معاطفهم إلى الأعلى، وداسين أيديهم في جيوبهم. وفي مدخل متجر المعدات، وقف الرجل الذي قطع ألف ميل، ليفي بموعده مع صديق شبابه، وقد بلغ به الشك مبلغ اليأس، مواصلا انتظاره، وقف وهو يدخن «سيجاره».

انتظر حوالي عشرين دقيقة، جاءه بعدها رجل يقطع الشارع من الجانب المقابل بسرعة، وقد رفع ياقة معطفه حتى أذنيه، واتجه إليه مباشرة، موجها إليه سؤالا تفوح منه رائحة الشك:

- «هل هذا هو أنت، يا بوب؟».

فصرخ به الرجل الواقف بالمدخل: «هل هذا هو أنت، يا جيمي ويلز؟».

أمسك الرجل القادم بيدي «بوب»، وقال بلهجة يشوبها التعجب: «رحماك يا رب، إنه بوب، بكل يقين، كما القدر. كنت واثقا من أنني سوف أجدك هنا، إن كنت لا تزال على قيد الحياة. حسنا، حسنا، حسنا، إن عشرين عاما مدة ليست بالقصيرة، لقد زال المطعم القديم يا بوب، وأتمنى لو أنه بقي حتى يكون في مقدورنا تناول عشاء آخر فيه. كيف كان الغرب معك، أيها الشيخ؟».

أجابه بوب: «رائعا. أعطاني كل ما طلبته منه، لقد تغير شكلك كثيرا يا جيمي. لم أكن أظنك طويلا بهذا القدر».

- «آه، لقد ازددت بعض الطول، بعد العشرين».
- «هل تسير أمورك جيدا في نيويورك يا جيمي؟».
- «بشكل معتدل. إني أعمل في إحدى دوائر المدينة، هلم بنا يا بوب، لنذهب إلى مكان أعرفه، ونحظى بحديث طويل عن تلك الأوقات التي عهدناها معا».

سار الرجلان على طول الشارع، ذراعا بذراع، أخذ بوب، وقد تعاظم غروره بفعل نجاحاته، يحدث الآخر عن ماضيه المهني. في حين كان الآخر يصغي باهتمام، وقد حجبت ياقة المعطف معالم وجهه.

وحين بلغا زاوية الشارع، تعرضا إلى الأضواء المنبعثة من إحدى الصيدليات، وتحت أضوائها الساطعة، أدار كل منهما عيناه نحو الآخر، محدقا في وجهه.

توقف الرجل الآتي من الغرب فجأة، وحرر ذراعه، قائلا للآخر بشكل سريع وحاد «إنك لست جيمي ويلز. إن عشرين عاما وقت طويل، لكن ليس بالكافي، لتغيير أنف الرجل، من أنف روماني، إلى أنف أفطس».

أجابه الرجل: «إن عشرين عاما لها أن تغير أحيانا الرجل الجيد إلى رجل سيئ. إنك قيدالاعتقال منذ عشر دقائق، أيها الرجل «المخملي». إن دوائرنا في شيكاغو علمت أن من المحتمل لك أن تمر بنا. واتصلت لتعلمنا أنها تريد إجراء محادثة معك، فهل ستذهب إليهم بهدوء؟ هذا معقول، والآن وقبل أن نذهب إلى المركز، إليك مذكرة علي أن أسلمك إياها، يمكنك أن تقرأها هنا، تحت أضواء الواجهة، وهي من رجل الدورية ويلز».

فتح رجل الغرب الورقة الصغيرة المعطاة إليه، بدأ القراءة بثبات، إلا أن يده أخذت في الارتعاش بمجرد أن انتهى من قراءتها، وكانت المذكرة قصيرة مقتضبة جدا.

«يا بوب: كنت في مكان الموعد في الوقت المحدد بالضبط، وحين ضربت بعود الثقاب لتشعل سيجارك، رأيت تحت ضوئه وجه الرجل المطلوب في شيكاغو، وشعرت بشكل ما، بأنني لا أستطيع أداء هذه المهمة بنفسي، لذا فقد تدبرت الأمر واستعنت برجل بملابس مدنية لأداء المهمة».

جيمي

الشرطي والنشيد

على مقعده، في ميدان «ماديسون»، تحرك «سوبي» بقلق. فحين يصيح الأوز البري عاليا، في أواخر الليالي، وحين تخلع النساء معاطفهن الجلدية، ويصبحن لطيفات تجاه أزواجهن، وحين يتحرك «سوبي» بقلق، على مقعده في المنتزه، يمكنك أن تعرف أن الشتاء قريب وفي متناول اليد.

وقعت ورقة شجر جافة في حضن سوبي، تلك كانت بطاقة زيارة جاك فروست، إن جاك لطيف تجاه من يترددون على ميدان «ماديسون»، ودائما ما يقدم لهم إنذارا لطيفا بزيارته السنوية على زوايا أربعة شوارع يسلم بطاقة زيارته إلى ريح الشمال، خادمة قصر كل المشردين، حتى يتمكن السكان حينئذ من الاستعداد.

أصبح سوبي يدرك حقيقة أن الوقت قد حان لأن يصرف نفسه إلى «لجنة طرق ووسائل» واحدة، ليتدبر أمر البرد القادم. ولذا، تحرك على مقعده بقلق.

لم تكن طموحات سوبي في البيات الشتوي كبيرة، إذ لم تكن تأخذ بعين الاعتبار، التطواف «المتوسطي»، أو السماوات «الجنوبية» المنعسة، أو الانجراف في الخليج «الفيزوفي». ثلاثة أشهر على الجزيرة، كان كل ما تلتمسه روحه، ثلاثة أشهر يضمن فيها المأوى، والمأكل، والصحبة الأنيسة، ويسلم فيها من ريح الشمال، والمعاطف الزرقاء، كانت تبدو في نظر سوبي خلاصة الطموحات.

طوال سنوات، كانت «بلاك ويل» المضيافة مقره الشتوي. وعلى غرار زملائه الأكثر حظا من مواطني نيويورك، الذين كانوا يشترون تذاكرهم إلى «بالم بيتش» و«الريفيرا» كل شتاء، اتخذ «سوبي» ترتيباته المتواضعة لهجرته السنوية إلى الجزيرة، والآن أزف الوقت، في الليلة السابقة فشلت ثلاث من صحف «الأحد»، الموزعة تحت معطفه، وحول كاحليه وفوق وسطه، في أن تصد البرد، حين نام على مقعده قرب النافورة التي يتدفق منها الماء، في الميدان القديم، وهكذا كانت الجزيرة تلوح كبيرة، وحان وقتها في نظر سوبي.

كان يكن نظرة ازدراء للتدابير التي تتخذ باسم الإحسان إلى معوزي المدينة. وفي رأي سوبي، فإن القانون أكثر سخاء من الأعمال الخيرية. كان هناك سلسلة لا نهاية لها من المؤسسات، البلدية والمحسنة، التي بمقدوره أن يقصدها ويتلقى المأوى والطعام، بشكل ينسجم مع الحياة البسيطة التي يعيشها، ولكن بالنسبة إلى كبرياء سوبي، فإن عطايا الإحسان تتطلب التسديد، إن لم يكن بالنقد، فعليك أن تدفع بإذلال النفس، مقابل كل منفعة يجري تلقيها، من أيدي المحسنين، وكما كان لقيصر «بروتوس» يخصه، فكل سرير من أسرّة الإحسان، لا بد من أن يكون له رسم حمام، وكل رغيف خبز، لا بد أن يكون له استجواب شخصي وخصوصي.

وعليه، يكون من الأفضل أن يحل المرء ضيفا على القانون، والذي رغم أنه يسير وفق قواعد معينة، إلا أنه لا يتطفل على شؤون الرجل الخاصة.

ولتحقيق رغبته، قرر سوبي أن يذهب إلى الجزيرة فورا. كانت هناك طرق سهلة عديدة لعمل ذلك، وأكثر تلك الطرق متعة هي تناول طعام عشاء فاخر، في مطعم من المطاعم ذات الأسعار المرتفعة، ثم بعد إعلان إفلاسه، يُسلِّم بهدوء، ومن غير ضوضاء، إلى أحد رجال الشرطة. وسوف يتكفل قاض لطيف بالبقية.

غادر سوبي مقعده، وتجول خارج الميدان، وعبر بحر الأسفلت المنبسط، حيث تطفو «برودواي» و«الشارع الخامس» معا في نهاية «برودواي»، انعطف وتوقف أمام مقهى يتألق، حيث يجتمع معا ليلا أفخر منتجات الكرمة، ودودة القفز، والـ «بروتوبلازم».

كان سوبي واثقا من نفسه، من أدنى إلى أعلى زر في معطفه، كان حليق الذقن، ومعطفه في حالة مرضية لا بأس بها، وربطة عنقه السوداء الأنيقة ذات العقدة الجاهزة، كانت قد قدمتها له إحدى المبشرات، في عيد الشكر. لو تمكن من الوصول إلى مائدة في المطعم، دون أن يثير الريبة، فسوف يحالفه النجاح.

إن ما يمكن أن يبدو من جسمه للناظر من فوق مستوى المائدة، لا يثير أي شك لدى النادل. فكر سوبي أن بطة برية مشوية سوف تكون هي الوجبة التي يتمناها، مع زجاجة «كابليس»، ثم جبن «الكممبر»، وفنجان صغير من القهوة، و«سيجار»، «دولار» واحد «للسيجار» سوف يكون كافيا، إن المجموع لن يكون مرتفعا لدرجة إنزال ثأر كبير، من قبل إدارة المقهى به، وعلاوة على ذلك، فإن اللحم سوف يتركه ممتلئا وسعيدا، طوال رحلته إلى ملجئه الشتوي.

ولكن ما أن وضع سوبي قدمه داخل المطعم، حتى وقعت عين النادل المسؤول على بنطاله البالي، وحذائه المتشقق، امتدت إليه

يدان مستعدتان، فأدارتاه، وأرسلتاه بصمت وسرعة إلى الرصيف، حائلتين بين البطة المهددة ومصيرها التعس.

ترك سوبي شارع برودواي، حيث بدا له أن طريقه نحو جزيرة الأحلام، ليس بالطريق الممتع وعليه أن يفكر بطريق آخر، لدخول السجن.

في أحد منعطفات «الشارع السادس» كانت الأضواء الكهربائية، والبضائع المعروضة بطريقة بارعة، وراء الزجاج، تضفيان على الواجهة الزجاجية، جاذبية، وروعة. فما كان من سوبي إلا أن تناول حجرا كبيرا وقذفه، فكسر الزجاج، هرع الناس إليه، يتقدمهم شرطي، وقف سوبي دون أن يتفوه ببنت شفة، ويداه في جيبه، مبتسما لمرأى الأزرار النحاسية، على معطف الشرطي.

سأل الشرطي وقد أثاره الموقف: «أين الرجل الذي فعل ذلك؟».

أجاب سوبي بتهكم تشوبه المودة، كما لو كان يواجه حظا جيدا: «أليس بمقدورك أن تدرك أنه من فعلي أنا؟».

إلا أن عقل الشرطي رفض أن يقبل بسوبي، حتى كدليل على الحادث، فالرجال الذين يحطمون الواجهات، لا يبقون لمجادلة رجال القانون، بل إنهم يلوذون بالفرار. رأى الشرطي رجلا في منتصف الطريق يجري ليأخذ سيارة، فاستل عصاه، وانضم إلى ملاحقيه، سوبي وقد سيطر عليه التبرم، أخذ يتسكع على طول الشارع، فاشلا للمرة الثانية على التوالي.

على الجانب المقابل من الشارع، كان ثمة مطعم متواضع المظهر، يقدم خدماته لرواد من أصحاب البطون الكبيرة، والجيوب الصغيرة، وآنيته وجوه كانا يتميزان بالكثافة، في حين كان الحساء

والمناديل يتميزان بالرقة المتناهية. إلى هذا المكان، دخل سوبي بحذائه وبنطاله، من دون أن يكون ثمة تحد، جلس إلى مائدة، وتناول شريحة لحم بقري، وكعك مخيض اللبن والبيض، والكعك المحلى، وفطيرة، من ثم تحدث إلى النادل، كاشفا حقيقة أنه كان على خصام كلي، حتى مع أصغر قطعة نقدية، قائلا له: «والآن، تحرك واستدع شرطيا. ولا تترك سيدا مثلي ينتظر».

أجابه النادل: بصوت يشبه كعك الزبد، وعينين كحبتي فراولة في «كوكتيل مانهاتن»: «ما من شرطي لك أيها السيد» وأضاف: ياكو!

أمسك نادلان بسوبي، وبرمية محكمة، طوحا به، ليقع على جانبه الأيسر، على أرض الرصيف الصلبة، وقف مفصلا بعد الآخر، كمسطرة نجار عند فتحها، ونفض الغبار عن ملابسه، لقد استحال السجن حلما ورديا، والجزيرة بدت جد قصية، رآه شرطي كان يقف أمام صيدلية، بعيدة عنه بمتجرين، فضحك وسار مبتعدا على طول الشارع.

سار سوبي على امتداد خمس بنايات حتى سمحت له شجاعته، بأن يغازل السجن من جديد. في هذة المرة، أتيحت له الفرصة ليحاول ما كان يدعوه بينه وبين نفسه، قبضة محكمة، كانت سيدة شابة ذات مظهر جيد معقول، تقف أمام واجهة محل، تحدق باهتمام بالغ في معروضاته، من أوعية الحلاقة، وحاملات الأقلام، وعلى مبعدة ذراعين من الواجهة، كان يقف شرطي ضخم تبدو عليه الصرامة، متكئا على سدادة ماء.

كان تخطيط سوبي أن يلعب دور «المعاكس» القذر والمنحط. وقد شجعه لذلك المظهر الصافي والأنيق لضحيته، وكون

الشـرطي الأمين، علـى مـقـربـة منه لأن يصـدق أنه سـرعـان مـا يشـعر بالقبـضـة الرسـميـة المتعـة على ذراعه، وسـوف يكون من شـأنهـا أن تضـمن مـأواه الـشـتـوي، علـى الجـزيرة الصـغـيـرة، التـي يمكنه أن يتدبر أمره فيها.

سوى سوبي من وضع ربطة العنق الجاهزة، التي سبق أن قدمتها له السـيـدة المبـشـرة، وسـحب طـرفي ردنيـه المنكمـشين إلى العيـان، وعدل من وضع قبعته بحركة مفاجئة، ومشى باتجاه السيدة الشابة. حدق فيها، وأخذته الكحة المفاجئة و«النحنحات»، ثم تكلف الابتسام وذهب إليها بصفاقة، تحت شعار وقاحة وقذارة «المعاكس».

وبعين نصف مفتوحة أدرك سـوبي أن الشـرطي يراقبـه بإمعـان، تحـركـت السـيـدة الشـابة مـبـتـعـدة بضـع خطوات، ومن جـديد عـادت إلى الانكبـاب على أوعيـة الحـلاقـة، تابعـهـا سـوبي بوقـاحـة واقـفـا بمحاذاتها ورفع قبعته قائلا: «آه... هذه أنت يا بيديليا ألا تريدين أن تأتي وتلعبي في ساحتي».

كـان الشـرطي لا يزال يـرمـقـهـا بنظراته، أمـا المرأة الشـابة الملاحقة، فلم يكن الأمـر يتطلب منها إلا أن تشير بإصبعها، ويكون سـوبي فـي طريقـه فـعـلا إلى فـردوسـه الجـزيري. وقـد سـبق له أن تخيل أنه سـوف يكون بمقـدوره أن يسـتـمـتـع بدفء المخـفـر. التـفـتت إليه المرأة الشابة، ومدت يدها، وأمسكت بكم معطف سـوبي، قائلة له بجذل «بالتـأكيد يا مايك، إذا كنت تتكرم بدعـوتي إلى برميل من الشراب، سـأرد عليك قبلا، إلا أن الشرطي كان يراقبنا».

فـاجـأه تعلق المرأة الشـابة به، فـمـشـى أمـام الشـرطي، وقـد اغـتـم لانتصاره عليه وبدا له أنه مكتوب عليه الحرية.

عند المنعطف الثاني، تخلص من مرافقته وجرى. توقف في الناحية التي تزدان فيها الشوارع بالأنوار، والقلوب، والعهود، والأوبرات، حيث النساء مرتديات الفرو، والرجال مرتدون المعاطف الفاخرة يتحركون بمرح في ذلك الجو الشتوي، انتاب سوبي الخوف من أن يكون عمل سحري رهيب، قد أكسبه المناعة من السجن. أثارت هذه الفكرة لديه شيئا من الرعب، وعندما مر بشرطي آخر يتمشى بكبرياء أمام أحد المسارح، خطر في ذهنه على الفور «سلوك مخل بالنظام».

على الرصيف أخذ سوبي يصرخ بأعلى صوته الأجش، بكلام لا معنى له، كما يفعل الثمل. رقص، ضحك، هذى، وبوسائل أخرى أفسد الجو. حرك الشرطي عصاه، وأدار ظهره لـ سوبي، وقال لأحد المواطنين «إنه واحد منهم، شبان ييل المحتفلين ببيضة الأوزة التي يقدمونها لكلية هارتفورد. ضجيج، لكن ما من أذى، لدينا تعليمات بأن نتركهم لشأنهم».

سوبي وقد سيطر عليه الأسى، توقف عن خطته التي لا طائل من ورائها، ألن يلقي القبض عليه شرطي ما أبدا؟ وفي مخيلته بدت الجزيرة فردوسا يتعذر بلوغه. أحكم أزرار معطفه، طلبا للحماية من البرد القارس.

في متجر «السيجار»، رأى رجلا أنيق الملبس يشعل «سيجارا» تحت ضوء متأرجح، وكان الرجل قد ركن مظلته قرب المدخل، خطا سوبي إلى الداخل، أمسك بالمظلة ومشى ببطء لحق به الرجل بسرعة، وقال بصرامة: «مظلتي». فأجابه سوبي بسخرية مهينة: «آه، هل هي لك؟» حسنا، لم لا تستدعي

شرطيا؟ أنا أخذتها، مظلتك! لم لا تستدعي شرطيا؟ هناك يقف واحد عند المنعطف».

أبطأ صاحب المظلة في سيره، وفعل مثله سوبي متوجسا من أن يخونه الحظ مرة أخرى، نظر الشرطي إلى الرجلين باستغراب، قال صاحب المظلة «طبعا» هذا يعني... حسنا، أنت تعلم كيف تحدث مثل هذه الأمور - أنا - إذا كانت المظلة لك، فآمل أن تعذرني - لقد التقطتها هذا الصباح في أحد المطاعم - إذا كنت تعرفت إليها لماذا... آمل أن...

أجاب «سوبي بحدة: طبعا إنها لي».

تراجع صاحب المظلة السابق، أسرع الشرطي لمساعدة شقراء طويلة القامة ترتدي معطف أوبرا، في عبور الشارع أمام سيارة آخذة بالاقتراب، على مبعدة بنايتين.

سار سوبي باتجاه الشرق عبر شارع أفسدته الإصلاحات، قذف المظلة بغيظ في إحدى الحفر. وأخذ يدمدم بكلمات ضد من يرتدون الخوذ، ويحملون العصي، لأنه يريد أن يقع في قبضتهم، لكن بدا أنهم يعتبرونه كأحد الملوك لا يمكن أن يرتكب خطأ.

أخيرا بلغ سوبي أحد الشوارع التي تقع إلى الشرق، حيث تخفت فيها الأنوار والضوضاء، استدار باتجاه ميدان «ماديسون»؛ نظرا لأن غريزة «الحنين إلى البيت» تبقى، حتى لو كان البيت مقعد منتزه.

ولكن عند منعطف هادئ، بشكل غير طبيعي، بلغ سوبي نقطة توقف كلي. كان ثمة كنيسة قديمة جذابة تتكون من عدة مبان، معمار الجزء العلوي منها على شكل مثلثات، عبر إحدى النوافذ

المطلية باللون البنفسجي، توهج نور خفيف، حيث كان من دون شك، عازف الأرغن يحرك يديه بهدوء فوق المفاتيح، ليطمئن إلى أستاذيته في نشيدالأحد، الذي سيلي. هناك بلغت مسامع سوبي موسيقى عذبة، أبقته مسمرا على التواءات السياج الحديدي.

فوقه كان القمر لماعا وصافيا، وكانت المركبات والمارة قليلين، وعصافير الدوري تغرد من على الأفاريز، ولبرهة قصيرة كان يمكن للمشهد أن يبدو كمشهد كنيسة ريفية، والنشيد الذي كان يعزفه عازف الأرغن، ألصق سوبي بالسياج الحديدي، لأنه كان يعرفه جيدا أيام كان في حياته أمور مثل الأمهات، والورود، والطموحات والأصدقاء، والأفكار والياقات الناصعة.

وعمل التفاعل ما بين حالة التلقي الذهنية لدى سوبي، مع انطباعاته تجاه الكنيسة القديمة، على إحداث تغير مفاجئ ورائع، في روحه، نظر بشيء من الرعب إلى المستنقع الذي كان واقعا فيه، والأيام المنحطة، والرغبات التافهة، والآمال المدفونة، والقدرات المحطمة، والحوافز الأساسية التي كانت تصوغ وجوده.

وبلحظة، أيضا استجاب قلبه بشكل مرعب لهذه الحالة الجديدة، وشعر بدفعة قوية وفورية، تحركه للصراع مع مصيره اليائس، سوف يسحب نفسه من الوحل، وسوف يجعل من نفسه رجلا من جديد، وسوف ينتصر ويهزم الشر الذي تملك نفسه، كان ثمة وقت، إذ إنه لا يزال نسبيا في سن الشباب، وسوف يستخرج الطموحات التي كان يتوق إليها سابقا، وسوف يطاردها من غير تردد. أنغام الأرغن المقدسة، لكن العذبة، أثارت في نفسه ثورة. غدا، سوف يذهب إلى وسط المدينة الصاخب، ويبحث له عن

عمل، ذات مرة عرض عليه أحد مستوردي الفراء، العمل كسائق، سوف يعثر عليه غدا، ويسأله ذلك العمل، سوف يكون شخصا ما في العالم... وسوف....

شعر سوبي بيد تمسك بذراعه، نظر حوله بسرعة في الوجه العريض للشرطي، الذي سأله: «ماذا تفعل هنا؟».

أجاب سوبي، «لا شيء».

قال الشرطي: «تعال معي».

وقال القاضي في محكمة الشرطة، في الصباح التالي: «ثلاثة أشهر في الجزيرة».

مصفاة الحب

تقع «صيدلية النور الأزرق» في وسط المدينة، بين شارع «باوري» و«الشارع الأول»، حيث تكون المسافة ما بين الشارعين، في أقصر امتداد لها. وترى «النور الأزرق» أن الصيدلية ليست متجرا للعطور النادرة، وصودا المثلجات. وإذا ما طلبت من الصيدلية مضادا للصداع فلا تتوقع أن تحصل على حلوى.

وتحتقر «النور الأزرق» فنون اختصار الجهد، التي تعتمدها الصيدلية الحديثة. وهي تقوم بمعالجة المواد المهدئة، والمسكنة للألم، وتجهز منها مستحضراتها الخاصة. حتى هذا اليوم، لا يزال يجري تحضير الأدوية على مكتب الوصفات المرتفع، الأدوية توضع على رقائق خاصة بها، وتقطع بأداة خاصة، تضغط بحركة دائرية بالسبابة والإبهام، ويرش عليها المغنيسيوم المكلس، وتعبأ في علب أدوية كرتونية صغيرة مستديرة. وتقع الصيدلية على منعطف يلعب فيه أطفال مرحون، مكسوون بملابس رثة، ويتأهلون للأدوية - التي تكافح الكحة، وتلطف من آثار المرض - التي تنتظرهم في الداخل.

«آيكي شوينشتاين» كان المناوب الليلي في «النور الأزرق»، وكانت علاقته بزبائنه تصل إلى حد الصداقة. كانت الصيدلية تقع على الجانب الشرقي، مما يطرد عنها البرد. وفيها يكون الصيدلي، كما يجب عليه أن يكون، متلقي الاعتراف، ومقدم المشورة، ومسدي النصح، والراعي، والمرشد القادر والمستعد، وصاحب علم

يقدره الناس، وحكمة غامضة يجلونها ودواء يصبونه ويجرعونه، دون أن يتذوقوه. لذا، فقد كان أنفه الذي تغطيه النظارات، وقوامه الهزيل الذي أضنته المعرفة شهيرين في الجوار، وكانت نصائحه وآراؤه تطلب بإلحاح.

كان «آيكي» يعيش في إحدى غرف منزل السيدة «ريدل»، على مبعدة ميدانين، وهناك يتناول طعام الإفطار، وكان للسيدة «ريدل» ابنة تدعى «روزي»، ولا داعي للإسهاب - حيث إنك لا بد أن تكون قد حزرت المسألة - «آيكي» كان متيما بـ«روزي»، لقد استحوذت على كل تفكيره، وكانت تشكل الخصاصة المركبة لكل ما كان كيميائيا نقيا ورسميا، وليس هناك في علم الأدوية ما يناظرها. إلا أن «آيكي» كان مخلوع الفؤاد، وآماله بقيت لا تقبل الذوبان في المذيب المكون من تخلفه، ومخاوفه. وراء مكتبه كان جبارا، يدرك بهدوء المعرفة والقيمة الخاصتين به، أما في الخارج فقد كان ضعيف القلب، هائما، يرتدي ملابس غير متناسقة، وملطخة بالمواد الكيمياوية.

لم يكن ينغص عليه حبه سوى «تشانك مان غووان». وكان السيد «ماك غووان» أيضا يبذل قصارى جهده، ليحظى بنظرة إلى البسمات المشرقة التي توزعها «روزي». إلا أنه لم يكن يرد على غرار «آيكي»، فلاعبنا كان سريع الاستيعاب لمحاولات الصد. وكان في الوقت نفسه، صديق «آيكي» وزبونه، وكثيرا ما يمر بـ «صيدلية النور الأزرق» ليطلب مسح كدمة أصابته باليود، أو تغطية جرح باللاصق الطبي، بعد أمسية بهيجة، في الـ «باوري».

في عصر أحد الأيام، غرق «ماك غووان» في صمته، مطمئنا، وجلس على أحد المقاعد، وقد علت محياه الوسامة، والارتياح، والانتصار، والطيبة. وحين أحضر صديقه جرته، وجلس قبالته، يهرس اللبان الجاوي في مسحوق، قال له: «آيكي... اسمعني جيدا إنها أدوية لي... هي ما أحتاجه».

دقق «آيكي» في ملامح السيد «ماك غووان» بحثا عن آثار مشاجرة، إلا أنه لم يجد شيئا من ذلك. قال له: «اخلع معطفك». أعتقد قبل أن أرى، أنك قد تعرضت لطعنة سكين، بين أضلاعك. طالما قلت لك إن أولئك السفلة سوف يقتلونك». ابتسم السيد ماك غووان، قائلا: «ليسوا هم... ليس أي من السفلة. لكنك قد أصبت التشخيص بالتمام... إنه تحت معطفي، قرب أضلاعي. يعني! يا آيكي... روزي وأنا سوف نهرب الليلة ونتزوج.

شدد «آيكي» قبضته على الجرن، بإضافة الوسطى إلى السبابة على حافة الجرن. ضرب الجرة بالمدقة ضربة قوية، لكنه لم يشعر. في تلك الأثناء، كانت ابتسامة «ماك غووان» قد خبت، لتحل محلها كآبة حيرى.

وأضاف: «هذا... إذا بقيت على رأيها إلى حين حلول الموعد. لقد كنا نرتب أمورنا من أجل الهرب، طوال أسبوعين، أحيانا تأتي وتقول إنها ستهرب، لكنها في مساء اليوم ذاته، تغير رأيها. اتفقنا على الليلة، والتزمت «روزي» بوعدها هذه المرة، طوال يومين كاملين. لكن، يتبقى للموعد خمس ساعات، وأخشى أن تخيب أملي حين نبلغ لحظة التنفيذ».

سأل «آيكي»: «لقد قلت إنك تريد أدوية؟».

بدا على السيد «ماك غووان» الاضطراب والضيق، على عكس سيرته المعتادة. أمسك بنشرة تسجيل دواء ولفها وثبتها بعناية غير مجدية حول إصبعه.

قال: «لن أترك هذه الإعاقة المتكررة، تؤدي إلى بداية فاشلة هذه الليلة، ولو كلفني الأمر مليونا. لدي شقة صغيرة جاهزة في هارليم، بالمفرش على المائدة، وركوة جاهزة للتسخين. اتفقت مع الواعظ ليكون مستعدا في بيته، في الساعة ٩,٣٠، يجب أن يُنفَّذ الأمر. وإذا لم تغير روزي رأيها مرة أخرى!... توقف السيد «ماك غووان» عن الكلام، وقد سيطرت عليه الظنون.

قال «آيكي» باقتضاب: «لا أرى إذن حتى الآن ما الذي يجعلك تتحدث عن الأدوية، مالذي يمكنني أن أفعله بخصوصها».

واصل طالب الزواج القلِق كلامه، ملتفتا إلى تنظيم محاججته: «ريدل العجوز لا يحبني بعض الشيء... طوال أسبوع لم يدع روزي تخطو خارج البيت برفقتي. ولو لم تكن هناك خسارة لمستأجر، لكانوا قد تخلصوا مني منذ وقت طويل. إنني أكسب ٢٠ دولارا في الأسبوع، ولن تندم على الفرار من الحظيرة، مع تشانك ماك غووان».

قال «آيكي»: «المعذرة ياتشانك، إن علي أن أحضّر وصفة، سرعان ما يطلبها صاحبها».

قال «ماك غووان» وقد بدا عليه الانتباه المفاجئ: «قل... قل، يا آيكي، أليس هناك دواء، نوع من المساحيق، تجعل الفتاة تحبك أكثر إذا ما أعطيتها إياها؟

زم «آيكي» شفته العليا بتعالي المتفوق في المعرفة، لكن قبل أن يتمكن من الإجابة، واصل «ماك غووان» كلامه:

قال لي «تيم لايسي» إنه حصل على بعض منها، مرة من خزاف في طرف المدينة، وأسقاها لفتاته، بعد إذابتها في ماء الصودا. وما أن تناولت الجرعة الأولى، حتى أصبح في نظرها بطلا، وأصبح كل شخص آخر، يبدو تافها بالنسبة إليها. وتزوجا خلال أقل من أسبوعين.

كان «تشانك ماك غووان» قويا وبسيطا. وكان بمقدور من يفهم الرجال أكثر من «آيكي»، أن يلاحظ أن بنيته القوية كانت مشدودة بخيوط رقيقة. وكجنرال جيد يوشك على غزو منطقة العدو، كان يسعى إلى حماية كل نقطة، من أي فشل ممكن.

واصل «تشانك» كلامه آملا: «فكرت... أنه لو كان لدي أحد هذه المساحيق، لأعطيه لـ روزي، حين أراها على العشاء الليلة. فسوف يمكنني أن أجذبها، وأحول بينها وبين التراجع عن فكرة الهرب. أظن أنها لا تحتاج إلى قطيع بغال لجرها بعيدا عن البيت، لكن النساء أفضل في الركوب منهن في الجري. إذا كان ذلك الشيء سينجح فقط لمدة ساعتين، فإن الحيلة ستمر».

سأل آيكي: «متى سيتم القيام بحماقة الهرب هذه؟».

قال السيد ماك غووان: «في الساعة التاسعة... العشاء سيكون السابعة. في الثامنة تذهب روزي إلى فراشها مدعية الصداع، في التاسعة يسمح لي بار فينزانو العجوز بالعبور إلى ساحة بيته الخلفية، حيث يوجد لوح لاجتياز سياج بيت ريدل المجاور. أذهب إلى أسفل نافذتها، وأساعدها على الهبوط عن طريق مخرج الحريق. علينا القيام بهذا العمل مبكرا، من أجل الواعظ. الأمر

كله سيفشل إذا لم تهرب روزي عند إعطاء الإشارة. هل تستطيع أن تمدني بواحد من هذه المساحيق، يا آيكي؟».

مسح «آيكي» أنفه ببطء، ثم قال: «يا تشانك، إنها من الأدوية التي تتميز بطبيعة خاصة، توجب على الصيادلة أن يولوها عناية خاصة. وحدك من بين معارفي أستطيع أن أئتمنك على مسحوق كهذا. ومن أجلك سوف أقوم بتحضيره، وسوف ترى كيف يجعل روزي تفكر بك».

دخل «آيكي» وراء مكتب الوصفات، حيث طحن قرصين قابلين للإذابة، كل منهما يحتوي ربع قمحة(*) من «المورفين». وأضاف إليهما قليلا من مسحوق الحليب، حتى يزيد كميتهما، وغلف المزيج بورق أبيض بشكل أنيق. إذا ما تناول شخص كبير هذا المسحوق فسوف يغرق في نوم عميق لعدة ساعات من دون الإضرار بالنائم. سلم الدواء إلى «تشانك ماك غووان»، قائلا له أن يعطيه لها مذابا في سائل، إن أمكنه ذلك، وانهال عليه الشكر الصادر من قلب عاشق الساحة الخلفية.

يتضح ذكاء ما قام به «آيكي» من خلال الحديث عن خطوته التالية. أرسل إلى السيد «ريدل»، من يفضح له خطط السيد «ماك غووان» للفرار مع «روزي». وكان السيد «ريدل» رجلا قويا، حنطي البشرة، وفوري الحركة.

قال باقتضاب إلى آيكي: «أنا ممتن لك... يا له من متشرد كسول! إن غرفتي تقع تماما فوق غرفة روزي. لن أحتاج إلى أكثر من الذهاب إلى هناك بنفسي بعد العشاء، وأحشو سلاحي،

(*) مقياس للوزن.

وأنتظر. إذا أتى إلى ساحتي الخلفية، فإنه حتما سيهرب في سيارة إسعاف، بدلا من عربة زفاف.

بوقوع روزي في براثن «المورفين» طوال ساعات تقضيها في نوم عميق، وبالأب المتعطش للدم في الانتظار مسلحا ومستعدا، شعر «آيكي» أن منافسه يسير، فعلا، إلى الفشل الذريع. أمضى الليل بطوله في «صيدلية النور الأزرق»، ساهرا على واجبه ينتظر أخبار المأساة، لكن ما من أحد أتاه بأي خبر.

في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، جاء المناوب النهاري، وأسرع «آيكي» إلى السيدة «ريدل» ليعرف النتيجة. يا للمفاجأة! ياللعجب! ما أن خطا خارج الصيدلية لم يشاهد سوى «تشانك ماك غووان» خارجا من سيارة مارة، وأمسكه من يده... «تشانك ماك غووان» تعلو ملامحه ابتسامة المنتصر، ويفيض من الفرح.

قال «تشانك» ضاحكا موحيا «اقتلعتها... وصلت روزي مخرج الحريق في الوقت المحدد بالثانية، وكانت في اللحظة الأخيرة لدى الواعظ في الساعة ٩,٣٠. إنها مستيقظة في الشقة... أعدت بيضا هذا الصباح، وكانت ترتدي «كيمونو» أزرق... يا الله! كم أنا محظوظ! يجب أن تمر بنا ذات يوم، يا آيكي، وتتناول الطعام معنا. حصلت على عمل هناك قرب الجسر، حيث أتجه الآن».

سأل «آيكي» متلعثما «الـ... الـ... مسحوق؟».

قال تشانك بابتسامة عريضة «آه، تلك المادة التي أعطيتني إياها! حسنا. صار الأمر بالطريقة التالية. جلست إلى مائدة

العشاء الليلة الماضية في بيت ريدل، ونظرت إلى روزي، وقلت لنفسي ياتشانك، إن كنت ستأخذ الفتاة، فخذها في الميدان لا تحاول أيا من أساليب التحايل مع فتاة أصيلة مثلها، واحتفظت بالورقة التي أعطيتني إياها في جيبي، ثم وقع اختياري على طرف آخر كان حاضرا، والذي قلت لنفسي إنه يفشل في إيلاء صهره المستقبلي الحب اللازم، وعلي أن أترقب حظي وأذيب ذلك المسحوق في قهوة ريدل العجوز... فهمت؟!».

غرام وسيط مشغول

«بيتشر»، كاتب مؤتمن في مكتب «هارفي ماكسويل»، ووسيط، سمح له وضعه بإبداء شيء من الاهتمام والاندهاش، على محياه الجامد عادة، حين فاجأه صاحب العمل بالدخول في الساعة التاسعة والنصف، برفقة كاتبة الاختزال الشابة.

خاطبه بلهجة خاطفة: «صباح الخير يا بيتشر»، ثم اندفع إلى مكتبه كما لو كان ينوي أن يقفز من فوقه، ثم انكب على كوم الرسائل والبرقيات الكبير، الذي كان ينتظره.

السيدة الشابة كانت كاتبة الاختزال لـ «ماكسويل» طيلة عام مضى، كانت جميلة بشكل لا يمكن اختزاله، إلا أنها متنازلة عن أبهة جمالها الجذاب؛ إذ لم تكن ترتدي عقودا، أو أساور، أو قلائد. ولم يكن يبدو عليها مظهر من توشك على قبول دعوة للغداء. كان رداؤها رماديا وبسيطا بلا نقوش، لكنه كان يناسب قوامها بشكل يعكس وقارها، وكان مثبتا بقبعتها السوداء، جناح أخضر مذهب لببغاء. في هذا الصباح، كانت تتألق بنعومة وحياء، وكانت عيناها مشرقتين إشراقا حالما، ووجنتاها مشربتين بحمرة الخوخ، وتعبير محياها الباسم يفوح بالذكريات.

لاحظ «بيتشر»، وكان لا يزال يسيطر عليه بعض الفضول، اختلافا في أسلوبها هذا الصباح؛ إذ بدلا من الذهاب مباشرة إلى مكتبها، تريثت في المكتب الخارجي، محتارة بعض الشيء، وفجأة هرعت إلى مكتب «ماكسويل». ووقفت على مقربة منه لكي يدرك وجودها.

إن الآلة التي كانت تجلس وراء ذلك المكتب لم تعد رجلا، بل أصبحت أحد وسطاء نيويورك المشغولين، الذين تحركهم الدواليب الدوارة، المشددة، والنوابض(*).

سأل «ماكسويل» بحدة: «حسنا - ما الأمر - هل هنالك شيء؟».

كان بريده المفتوح يصطف كحاجز من الجليد على مكتبه المزدحم، رمقتها عيناه الرماديتان الحادتان، بشيء من نفاد الصبر.

أجابت كاتبة الاختزال: «لا شيء»، مبتعدة وشفتاها تفتران عن ابتسامة صغيرة.

قالت للكاتب المؤتمن: «يا سيد بيتشر» هل قال السيد «ماكسويل» شيئا أمس عن تعيين كاتبة اختزال أخرى؟

أجاب «بيتشر»: «نعم، قال: قال لي أن أجد واحدة أخرى. أبلغت الوكالة عصر أمس بأن ترسل بعض الفتيات هذا الصباح. إنها الساعة ٩,٤٥، ولم نشاهد أي قبعة جديدة بصورة، أو قطعة لبان بطعم الأناناس، حتى الآن».

قالت السيدة الشابة: «سوف أقوم بالعمل كالمعتاد إذن... إلى أن تأتي واحدة ما لتأخذ مكاني». وذهبت فورا إلى مكتبها، وعلقت القبعة السوداء، ذات جناح الببغاء الأخضر المذهب، في مكانها المعتاد.

ذلك الرجل الذي حرم من هيئة وسيط مانهاتن المشغول، خلال إحدى فترات ضغط العمل، يعيقه (الآن) التعمق في علم الإنسان.

الشاعر يتغنى بـ «ساعة الازدحام بين ساعات الحياة الرائعة». وليست ساعة الوسيط فقط مزدحمة، لكن أيضا

(*) الزنبركات.

الدقائق والثواني مشدودة بكل الخيوط، وتُرص في كل من الأرصفة الأمامية، والخلفية.

واليوم هو يوم انشغال «هارفي ماكسويل». الشريط يدور مهتزا ليخرج لفائفه المنقبضة، وهاتف المكتب أصيب بنوبة رنين مزمن، وأخذ الرجال يحتشدون في المكتب، وينادون عليه من وراء المكتب، بحماس، وحدة، ولؤم، واندفاع. والمراسلون يركضون داخلين وخارجين برسائل وبرقيات. والكتبة يتقافزون كالبحارة وقت العاصفة. حتى غدا وجه «بيتشر» مسترخيا وحيويا.

هناك في البورصة، كانت ثمة أعاصير، وخسوف، وعواصف ثلجية، وأنهار الجليد، وبراكين، وهنا في مكاتب الوسطاء كان يعاد إنتاج اضطرابات العناصر تلك، بشكل مصغر. أزاح «ماكسويل» مقعده إلى الحائط، وأخذ يقوم بعمله، على غرار من يرقص على رؤوس أصابع قدميه. كان يقفز من الشريط إلى الهاتف، من المقعد إلى الباب، بخفة البط المرقط.

وفي خضم هذا الضغط الكبير والمتزايد، انتبه الوسيط، فجأة، إلى خصلات من الشعر الذهبي، ملفوفة، ومرفوعة إلى الأعلى، تحت قبعة مائلة من المخمل، مثبت عليها ريش النعام، وحقيبة من جلد يحاكي جلد الفقمة، وخيط يحمل خرزا، الواحدة منه بحجم حبة الجوز، يمتد حتى يصل الأرض، برأس على شكل قلب من الفضة. وكانت هناك سيدة شابة، يستحوذ عليها الشعور بذاتها، تتدلى منها تلك الإضافات الجمالية، وكان هناك «بيتشر»، ليشرح نيابة عنها.

قال «بيتشر»: «السيدة مرسلة من وكالة كاتبة الاختزال، لترى طبيعة الوظيفة».

استـدار «مـاكسـويل» نصف دورة، ويداه مملوءتان بالأوراق، وشريط التلغراف. سأل، وقد بدا عليه التجهم: «أي وظيفة؟».

أجاب «بيتشر»: «وظيفة كاتبة الاختزال. قلت لي أمس أن أجمعهن وأرسل واحدة منهن هذا الصباح».

قال «ماكسويل»: «هل فقدت عقلك. يا بيتشر؟ ما الذي كان ليدعوني إلى أن أصدر لك مثل تلك التعليمات؟ لقد أدت الآنسة ليزلي عملها بشكل ممتاز خلال السنة التي أمضتها هنا. الوظيفة، ملكها هي، ما دامت هي تريد الاحتفاظ بها. لا يوجد هنا وظيفة شاغرة، يا سيدتي. ألغ تلك التعليمات لدى الوكالة، يا بيتشر، ولا ترسل المزيد من الفتيات إلى هنا».

غادر القلب الفضي المكتب، وهو يتأرجح بتلقائية، يصطدم وفقها بأثاث المكتب، وقد علقت به الإهانة. انتهز «بيتشر» الفرصة ليعلق قائلا لماسك الدفاتر: «يبدو أن «العجوز» غدا كثير النسيان لكل مجريات يوم العمل».

تزايد ضغط العمل، وسرعة وتيرته، بشكل أكثر قسوة وإلحاحا. على المكتب، فرشوا اثني عشر سهما، كان فيها زبائن ماكسويل من كبار المستثمرين. تعليمات البيع والشراء، كانت تأتي وتذهب بخفة البط عند طيرانه. وبعض من الأوراق المالية الخاصة به تعرض للخطر. وكان الرجل يعمل كآلة قوية، حساسة، مرفوعة إلى أقصى طاقة تشغيل لها، كان يعمل بأعلى وتيرة لديه، متحركا بأقصى سرعة، دقيقا، لا يتردد أبدا. دائما لديه الكلمة والقرار المناسبان، وجاهز للعمل وفوري التحرك كالساعة. الأسهم، والسندات، والقروض،

والرهون، والهوامش، والأوراق المالية، هنا عالم المال، وليس ثمة متسع لعالم الإنسان أو الطبيعة.

حين اقتربت ساعة الغداء، أصاب الضجة شيء من الفتور. وقف «ماكسويل» أمام مكتبه، ويداه مملوءتان بالتلغرافات، والمذكرات، وقلم حبر فوق أذنه اليمنى، وخصلات شعره تتدلى بغير نظام على جبهته. كانت نافذته مفتوحة للبوابة المحبوبة، حيث إن الربيع كان قد أضفى شيئا من الدفء. على نظام الطبيعة الدقيق.

وعبر النافذة جاء أريج رائع، وربما مفقود، أريج رقيق عذب من الليلك، مماثل حركة الوسيط للحظة. ذلك أن هذا الأريج يخص الآنسة «ليزلي»، كان يخصها وحدها، ووحدها فقط. أتى بها الأريج سريعا، على مرأى منه تقريبا. وتضاءل عالم المال فجأة إلى ذرة صغيرة. وكانت هي في الغرفة المجاورة - على مبعدة عشرين خطوة.

قال «ماكسويل» بصوت شبه جهوري: «بحق جورج، سوف أفعلها الآن سأطلب يدها للزواج حالا. أتعجب كيف لم أفعلها منذ عهد بعيد. اندفع إلى المكتب الداخلي، بسرعة من يحاول تغطية انكشاف. وانقض على مكتب كاتبة الاختزال. رفعت بصرها إليه وهي تبتسم. وزحف احمرار على وجنتيها، وبدت عيناها ودودتين وصريحتين. ارتكز «ماكسويل» بأحد مرفقيه على مكتبها. كان لا يزال يقبض على أوراق مرتعشة بكلتا يديه، والقلم فوق أذنه.

بدأ حديثه مستعجلا: «يا آنسة ليزلي. لا أملك من الوقت سوى لحظة واحدة. وأريد أن أقول شيئا في تلك اللحظة. هل تقبلين أن

أكون زوجا لك؟ لم يكن لدي الوقت لأقيم علاقة حب معك، بالطريقة المألوفة، لكنني حقا أحبك. أجيبي بسرعة، رجاء... أولئك الرجال يعملون على إفراغ ما في جعبة يونيون باسيفيك».

ردت السيدة الشابة باستغراب: «آه، ما هذا الذي تقوله»، ثم وقفت وحدّقت فيه بعينين مستديرتين.

قال «ماكسويل» بجموح «ألا تفهمينني؟ أريدك أن تتزوجيني. أنا أحبك يا آنسة ليزلي. أردت أن أقول لك، وانتهزت دقيقة، حين هدأت وتيرة العمل، بعض الشيء، إنهم ينادون عليَّ لأجيب على الهاتف الآن. قل لهم أن ينتظروا دقيقة يا بيتشر، هل قبلت يا آنسة ليزلي؟».

كان رد فعل كاتبة الاختزال غريبا جدا. أول الأمر، بدا كأن الدهشة سيطرت عليها، ثم تدفقت الدموع من عينيها المتعجبتين، ثم أشرقت ابتسامتها عبر الدموع، وانزلقت إحدى ذراعيها بحنان حول رقبة الوسيط.

قالت بنعومة: «أعرف الآن. إنه ذلك العمل القديم، هو ما جرف كل شيء آخر، بعيدا عن رأسك، طوال الوقت. في البداية كنت أخشى ألا تذكر يا هارفي؟ لقد تزوجنا الليلة الماضية، في الساعة الثامنة مساء، في الكنيسة الصغيرة، الواقعة عند منعطف الشارع».

إصلاح مردود

جاء أحد الحراس إلى محل الأحذية في السجن، حيث كان «جيمي فالنتاين» منكبا على خياطة الجوانب العلوية، ورافقه إلى المكتب الأمامي. هناك سلم المسؤول جيمي ورقة العفو عنه، التي كان قد وقعها الحاكم ذلك الصباح، وأخذ جيمي الورقة بيد متعبة، لقد خدم حوالي عشرة أشهر، من حكم مدته أربعة أعوام، كانت يتوقع البقاء حوالي ثلاثة أشهر، على أكثر تقدير. وعندما يودع في السجن رجل مثل «جيمي فالنتاين»، له ذلك العدد الكبير من الأصدقاء، يصعب على المرء أن يجده جديرا بقص شعره.

قال المسؤول: «والآن يا فالنتاين سوف تخرج في الصباح. تماسك، واثبت، واجعل من نفسك رجلا، إنك لست بالرجل السيئ، توقف عن فتح الخزائن، وعش مستقيما».

قال جيمي بدهشة: «أنا؟... لماذا، أنا لم أفتح خزنة واحدة في حياتي».

ضحك المسؤول قائلا: «آه، لا طبعا لا. لنر الآن، كيف تم إرسالك إلى عمل سبرنغ فيلد ذاك؟ هل كان ذلك لأنك لم تتمكن من إثبات غيابك عن مكان الجريمة أثناء وقوعها، خشية التعريض بشخص ما ينتمي إلى مجتمع راق جدا؟ أم أنها كانت مسألة هيئة من المحلفين الأوغاد أرادوا إدانتك؟ ليس أمامكم سوى أحد هذين الاحتمالين، أيها الضحايا الأبرياء».

رد جيمي قائلا، والبراءة الشديدة تعلو محياه: «أنا؟... لماذا، أيها المسؤول، أنا لم أذهب إلى سبرنج فيلد، طوال حياتي!».

ابتسم المسؤول، وقال: «أعده يا كرونين... وألبسه ثياب الخروج. افتح عليه في السابعة صباحا، ودعه يأتي إلى هنا، الأفضل أن تعيد النظر في نصيحتي يا فالنتاين».

في السابعة والربع من صباح اليوم التالي، وقف جيمي في المكتب الخارجي، كان يرتدي بذلة من الملابس الجاهزة، لا تناسبه أبدا، وزوجا من الأحذية الصلبة التي تحدث صريرا، التي تزود بها الدولة من يغادر من ضيوفها الإلزاميين.

سلمه الكاتب بطاقة قطار، وورقة من فئة الخمسة «دولارات» التي يفترضها القانون أن يعيد بها ترتيب أوضاعه وتأهيل نفسه ثانية، بحيث يكتسب صفات المواطنة الصالحة والنجاح. زوده المسؤول بـ «سيجار»، وصافحه. تم تسجيل فالنتاين (٩٧٦٢) في السجلات، تحت بند «عفا عنه الحاكم»، وغادر السيد جيمس فالنتاين سائرا تحت أشعة الشمس.

متجاهلا أغاني الطيور، وتموج الأشجار الخضراء، وروائح الأزهار، اتجه جيمي مباشرة إلى أحد المطاعم. وهناك استمتع بتذوق أول عذوبة من عذوبات الحرية، على شكل دجاج مشوي، وزجاجة من النبيذ الأبيض، متبوعين بـ «سيجار» من نخب أرقى من الذي سبق أن قدمه له المسؤول. ومن هناك اتجه على مهل إلى المحطة، ألقى بربع «دولار» في قبعة رجل ضرير يجلس محاذيا للباب، واستقل قطاره، بعد ثلاث ساعات، حل في بلدة صغيرة قرب حدود الولاية، ذهب

إلى أحد مقاهي «مايك دولان» وصافح مايك، الذي كان يجلس وحده خلف البار.

قال له مايك: يؤسفني أننا لم نتمكن من ذلك قبلا، يا عزيزي جيمي، حيث واجهنا ذلك الاعتراض من سبرنج فيلد، وكان علينا الاستئناف ضده، وكاد الحاكم يقف ضده. هل أنت على ما يرام؟».

رد جيمي: نعم ألديك مفتاحي؟

أخذ مفتاحه، وصعد الدرج، وفتح باب إحدى الغرف في آخر الممر، كل شيء كان كما تركه، وعلى الأرض كان لا يزال زر ياقة رجل التحري الكبير «بن برايس»، الذي انقطع عندما ألقوا القبض على جيمي بالقوة.

فتح جيمي سريرا ينطوي إلى الحائط، ثم أدخل عصا خشبية في الحائط، وجر إلى الخارج حقيبة ملابس غطاها الغبار. فتحها، وحدق بإعجاب في أفضل مجموعة أدوات سرقة في الشرق. كانت مجموعة كاملة، مصنوعة من الفولاذ المقسى تقسية خاصة من آخر تصاميم المقادح، والمثاقب، والخرامات مع اختراعين أو ثلاثة من اختراعات جيمي نفسه، التي كان يعتز بها، ما يربو على التسعمائة دولار كلفه صنعها، في مكان يصنعون فيه مثل هذه الأدوات لأصحاب تلك المهنة.

بعد نصف ساعة هبط جيمي إلى الطابق الأسفل، وسار عبر المقهى، كان يرتدي ملابس أنيقة تناسبه، ويحمل بيده حقيبة ملابسه المغبرة بعد أن نظفها، سأله «مايك دولان» بجذل: «ألديك أمر ما؟».

قال جيمي وقد أصابته الحيرة: «لا أفهمك. إنني أقوم بتمثيل شركة دقيق البسكويت الموحدة في نيويورك».

أبهجت هذه الحقيقة مايك لدرجة أن جيمي اضطر إلى تناول «السلتزر» والحليب، لم يكن يمد يده إلى المشروبات القوية أبدا.

بعد إطلاق سراح فالنتاين (٩٧٦٢) بأسبوع، وقعت حادثة سرقة خزنة متقنة في «ريتشموند»، بـ «إنديانا»، ولم يتوافر أي دليل على الفاعل، ولم ينج من تلك السرقة سوى ثمانمائة دولار، بعد ذلك بأسبوعين جرى فتح خزنة مضادة للسرقة، محسنة ومسجلة، بكل يسر، على مبلغ ألف وخمسمائة دولار، من العملة الورقية، وبقيت الأوراق المالية والفضة مكانها، دون أن تمسها يد السارق. أخذ الأمر يثير اهتمام صائدي اللصوص، تلا ذلك أن أصيبت خزنة مصرف في مدينة جيفرسون بالسرقة أيضا، وأخرجت من جوفها دفعة من العملة الورقية، تبلغ خمسة آلاف دولار، وبذلك أصبحت الخسائر فادحة، لدرجة تصنف فيها ضمن المهام التي يتولاها «بن برايس».

وبمقارنة المدونات لوحظ شبه كبير في أساليب السرقات، حقق «بن برايس» في أوضاع السرقات، وسُمع وهو يقول: «هذا هو توقيع جيمي فالنتاين الأنيق. لقد استأنف عمله، انظر إلى ذلك القفل الرقمي... خرج بكل سهولة، كما الجزرة في الجو الرطب، إنه الوحيد الذي يملك مثل هذه الملازم التي يمكنها فعل ذلك. وانظر إلى مدى النظافة التي خرجت بها تلك الأقفال! لم يكن على جيمي سوى قدح ثقب واحد فقط، نعم، أظن أني أريد السيد فالنتاين، سوف يلعب دوره، في المرة المقبلة من دون أي حماقة استعجال أو رأفة».

كان «بن برايس» يعرف عادات جيمي، ذلك أنه تعلمها خلال عمله بقضية «سبرنج فيلد»، قفزات مرتفعة، عمليات هروب

سريعة، لا شركاء، وميل للمجتمع الراقي... هذه الأساليب كانت قد ساعدت السيد فالنتاين في أن يشتهر كأكثر المحتالين نجاحا. كان من الجلي أن بن برايس أمسك بأثر فاتح الأقفال المراوغ، وأن الآخرين من أصحاب الخزنات المضادة للسرقة، شعروا بالارتياح.

في عصر أحد الأيام، تسلل جيمي فالنتاين، وهو يحمل حقيبة ملابسه من إحدى عربات البريد في «إلمور»، وهي بلدة صغيرة تبعد خمسة أميال عن خط القطار، داخل عالم «بلاك جاك» الخاص بـ «آركنساس»، هبط جيمي من الممر الذي تشير إليه اللوحة، باتجاه الفندق، وهو يبدو كرجل محترم ورياضي في سن الشباب، عائد لتوه من الكلية.

عبرت سيدة شابة الشارع، مارة به في المنعطف، ودخلت بابا تعلوه لافتة «مصرف إلمور»، حدق جيمي في عينيها، فنسي من هو وبدا كأنه رجل آخر، خفضت هي بصرها واصطبغت وجنتاها بعض الشيء، كان من النادر أن تصادف شابا، من طراز جيمي ومظهره في «إلمور».

أمسك جيمي بصبي كان يتسكع على درجات المصرف، كما لو كان واحدا من أصحاب الأسهم، وأخذ يوجه إليه الأسئلة حول البلدة، مقدما له بعض القطع المالية الصغيرة بين الفينة والأخرى، وسرعان ما خرجت الشابة، في مظهر ملوكي، غير منتبهة إلى الشاب ذي الحقيبة، وسارت في طريقها.

سأل جيمي بمكر تبدو عليه سمات البراءة: «أليست تلك الشابة الآنسة بوللي سيمبسون؟».

قال الولد: «لا... إنها أنابيل آدامز. والدها يملك هذا البنك، ما الذي جاء بك إلى إلمور؟ هل تلك سلسلة ذهبية للساعة؟ سوف أذهب للحصول على كلب. ألديك المزيد من القطع النقدية؟».

ذهب جيمي إلى فندق «بلانترز» باسم مستعار «رالف دي سبنسر»، واستأجر غرفة، اتكأ على المكتب، شارحا وضعه للكاتب، قال له إنه جاء إلى «إلمور» بحثا عن موقع لمشروع عمل، كيف تسير تجارة الأحذية الآن في البلدة؟ كان قد فكر في تجارة الأحذية، هل هناك مجال؟

تأثر الكاتب بملابس جيمي وطريقته، هو نفسه كان على شيء من الأناقة بالنسبة إلى شبان إلمور ذوي المظهر الباهت، لكنه الآن أدرك نقاط ضعفه، وبينما كان يحاول أن يتبين طريقة جيمي في عقد رباط عنقه، كان يقدم المعلومات بكل حرارة.

نعم إن تجارة الأحذية مشروع جيد، ولا يوجد لدينا متجر أحذية كبير في البلدة. كانت محلات الملبوسات والمتاجر العامة تتولى ذلك الأمر، إن العمل في التجارة بجميع أنواعها هنا له مردود جيد، وأمل في أن يقرر السيد سبنسر التمركز في إلمور، وسوف يجدها بلدة يسره العيش فيها، وأهلها يتميزون بروح اجتماعية عالية.

فكر سبنسر في أن يتوقف في البلدة بضعة أيام، ليرى الوضع فيها. لا داعي لاستدعاء الصبي، إنه يستطيع حمل حقيبته إلى الأعلى بنفسه، فهي ثقيلة نوعا ما.

السيد رالف سبنسر، العنقاء التي انبعثت من رماد جيمي فالنتاين، الرماد الذي خلفه هجوم مفاجئ ومغير للحب... بقي

في إلمور، وازدهرت أموره، فتح متجر أحذية وأحرز وضعا تجاريا جيدا.

وفي الميدان الاجتماعي، كان ناجحا أيضا، واكتسب عددا كبيرا من الصداقات، وحقق ما كان يتمناه فؤاده، قابل الآنسة أنابيل آدامز، وازداد ولها بفتنتها.

في نهاية السنة، كانت حال السيد رالف سبنسر، كما يلي: نال احترام المجتمع المحلي، وازدهر متجره، وهو وأنابيل كانا مخطوبين وسيعقد قرانهما بعد أسبوعين، السيد آدامز مصرفي البلاد، النموذجي المثابر، وافق على سبنسر، واعتزاز أنابيل به كان يساوي حبها له، وكان وسط عائلتي آدامز وابنته المتزوجة كما لو كان بين أفراد عائلته.

في أحد الأيام، جلس جيمي في غرفته، ليكتب الرسالة التالية، التي أرسلها على العنوان الأمين، لأحد أصدقائه القدامى في «ساينت لويس»: صديقي العزيز أريدك أن تحضر في بيت «سوليفان» في «ليتل روك» الأربعاء القادم، في التاسعة ليلا. أريدك أن تنجز لي بعض الأمور الصغيرة، وأيضا أريد أن أهديك مجموعة الأدوات الخاصة بي، أعرف أنك سوف تسر بالحصول عليها...، لا يمكنك أن تنسخ عنها نسخة ثانية، ولو دفعت ألف دولار، يعني يا بيلي إنني هجرت العمل القديم... قبل سنة، لدي متجر جيد، وأكسب رزقي بالطريق الشريف، وسوف أتزوج أفضل فتاة على الأرض، بعد أسبوعين من الآن، إنها الحياة الوحيدة يا بيلي، الحياة المستقيمة، لن أمس دولارا واحدا من مال رجل آخر بعد الآن، ولو دفع لي مليون دولار، بعد أن أتزوج سوف أصفي

أعمالي، وأسافر إلى الغرب، حيث لا يكون ثمة تخوف من أن تثار ضدي قضايا قديمة، أقول لك يا بيلي إنها ملاك، إنها تؤمن بي، ولن أقوم بعمل ملتو آخر، ولو أعطيت العالم كله، ابذل قصارى جهدك لتكون في بيت سوليفان، لأنني يجب أن أراك... وسوف أحضر الأدوات معي.

صديقك القديم

جيمي

في مساء الاثنين، وبعد أن كتب جيمي رسالته هذه، سار بن برايس دون أن يضايق أحدا، بعربة يجرها حصان في «إلمور»، تلكأ هنا وهناك بطريقته الهادئة حتى عثر على ما كان يريد معرفته.

من الصيدلية قبالة متجر سبنسر، ألقى نظرة مطولة على رالف دي سبنسر، قائلا لنفسه برقة: «مقبل على الزواج من ابنة المصرفي، أنت يا جيمي؟ حسنا، لا أعرف».

في الصباح التالي، تناول جيمي طعام الإفطار في بيت عائلة آدامز، كان ينوي الذهاب إلى ليتل روك ذلك اليوم ليوصي على بذلة زواجه، وليشتري شيئا جميلا لـ «أنابيل». كانت تلك هي المرة الأولى التي يغادر فيها بلدة «إلمور»، منذ أن دخلها. لقد مر أكثر من سنة على تلك الأعمال الاحترافية الأخيرة، وظن أن في مقدوره أن يخرج بأمان في مشاريعه.

بعد الإفطار، سارت الجماعة العائلية معا، إلى وسط البلدة: السيد «آدامز»، وأنابيل جيمي وشقيقة أنابيل المتزوجة مع ابنتيها الصغيرتين، والبالغتين الخامسة والتاسعة من العمر. مروا بالفندق الذي لا يزال جيمي يقيم فيه، فركض صاعدا إلى غرفته وأحضر

حقيبة ملابسه، ثم واصلوا سيرهم حتى المصرف. هناك، وقف حصان جيمي والعربة ودولف جيبسون، الذي كان سيأخذه إلى محطة القطار.

دخل الجميع عبر السياج المصنوع من خشب البلوط إلى غرفة الصيرفة - بمن فيهم جيمي - ذلك أن الصهر المقبل للسيد آدامز كان موضع ترحاب في كل مكان، وكان من دواعي سرور الكتبة، أن يحييهم الشاب الوسيم الأنيق، الذي سوف يتزوج الآنسة أنابيل. وضع جيمي حقيبة ملابسه على الأرض، أنابيل التي كان قلبها يخفق من السعادة والشباب والحياة، وضعت على رأسها قبعة جيمي، وحملت الحقيبة قائلة: «ألا أصلح كبائع متجول؟ يا إلهي! كم هي ثقيلة، يا رالف، يبدو وكأنها مليئة بقطع الذهب».

قال جيمي بهدوء: «ثمة عدد كبير من قوالب الأحذية المطلية بالنيكل. حيث إنني أعتزم العودة، فكرت في أن أوفر تكاليف الشحن، عن طريق حملها معي، إنني ازداد ترشيدا بشكل مذهل».

كان «مصرف» إلمور قد وضع خزنة جديدة ذات صندوق، كان السيد آدامز فخورا جدا بها، وأصر على أن يتفحصها كل واحد. كان صندوق الخزنة صغيرا، لكن كان له باب حديث الاختراع، وكان يربط بثلاث أذرع فولاذية، ترتبط في وقت واحد مع يد منفردة، ولها قفل موقوت، شرح السيد آدامز، ووجهه يفيض بالإشراق، آلية عملها للسيد سبنسر، الذي أبدى اهتماما مجاملا، ليس على درجة عالية من الذكاء، أعجبت الطفلتان ماي وأجاثا بالمعدن اللامع، والساعة والأقفال الغريبة.

وبينما كانوا منهمكين بمتابعة هذه الأمور، إذا بـ «بن برايس» يدخل بهدوء، ويقف متكئا على مرفقه، ناظرا بين الفينة والأخرى إلى ما وراء السياج.

وقد أخبر المحاسب أنه لم يكن يريد شيئا، هو فقط في انتظار رجل يعرفه.

فجأة صدرت عن النسوة صرخة أو اثنتان، وساد جو من الاضطراب، ذلك أن ماي، الطفلة ذات السنوات التسع، عمدت رغبة في اللعب، ودون أن ينتبه إليها الكبار، إلى إغلاق باب الصندوق على «أجاثا»، أطلقت الأذرع، وأدارت القفل الرقمي، كما رأت السيد آدامز يفعل.

انطلق المصرفي العجوز إلى اليد، وشدها للحظة، إلا أنه لم يلبث أن زفر قائلا «لا يمكن فتح الباب، لم يتم تدوير الساعة، أو تنظيم الأرقام».

وصرخت أم «أجاثا» من جديد بهستيرية، فنهرها السيد آدامز، رافعا يده المرتجفة، وقائلا: «صمتا! ليهدأ الجميع لحظة». ونادى على الطفلة بأعلى ما بإمكانه «أجاثا! استمعي إليَّ». إثر ذلك، خيم الصمت، ولم يصدر سوى صوت صراخ الفتاة في ظلام الصندوق، وقد انتابها الرعب، يأتي ضعيفا إلى مسامعهم.

ناحت الأم «ابنتي الحبيبة! سوف تموت من الخوف! افتح الصندوق! اكسره! ألا تستطيعون أيها الرجال أن تفعلوا شيئا؟».

أجاب السيد آدامز بصوت مرتعش: «إن أقرب رجل يستطيع فتح الصندوق، هو في ليتل روك... يا إلهي! ماذا سنفعل يا

سبنسر؟ تلك الطفلة إنها لن تصمد طويلا هناك، ليس ثمة هواء كافٍ، وبالإضافة إلى ذلك، سوف يشلها الخوف».

هجمت أم أجاثا، وقد انتابها الجنون، على باب الصندوق، تضربه بكلتا يديها. وباهتياج اقترح أحد الواقفين هناك استعمال «الديناميت».

استدارت أنابيل إلى جيمي، وعيناها تفيضان ألما، لكن دون يأس حتى الآن. ففي نظر المرأة، ما من شيء يبدو مستحيلا، أمام قوى الرجل الذي تعشقه «ألا تستطيع أن تفعل شيئا يا رالف... حاول، ألن تجيب طلبي؟».

نظر إليها وقد علت شفتيه، ونظراته، ابتسامة ناعمة غريبة.

«أنابيل. أعطني تلك الوردة التي علي صدرك، رجاء».

مصدقة بصعوبة أنها سمعته جيدا، فكت الوردة عن صدرها، ووضعتها في يده، فوضعها هو بدوره في جيب صدره، ثم خلع معطفه، وسحب كمي قميصه إلى الأعلى. وهكذا رحل رالف دي. سبنسر ليحتل محله جيمي فالنتاين.

أصدر أمرا سريعا: «ابتعدوا عن الباب، جميعكم».

وضع حقيبة ملابسه على المائدة ثم فتحها فتحة كاملة، منذ تلك اللحظة، لم يعد يرى أحدا من المحتشدين حوله. أخرج أدواته الغريبة اللامعة بهدوء ونظام، مصفرا لنفسه، كما كان يفعل دائما عند مباشرة عمله، وبصمت مطبق تسمر الجميع محدقين به، كما لو كانوا تحت تأثير السحر.

خلال دقيقة، كان مقدح جيمي الحبيب، ينفذ بنعومة داخل الباب الفولاذي، وخلال عشر دقائق - حطم خلالها رقمه

القياسي في السرقة - رمى وراء ظهره الأذرع، وفتح الباب. وخرجت أجاثا وهي تكاد تنهار، لكن دون أن يمسها أذى، لترتمي بين ذراعي أمها.

ارتدى جيمي فالنتاين معطفه، وسار إلى خارج السياج، نحو الباب الخارجي. وبينما كان يسير ظن أنه سمع صوتا بعيدا كان يعرفه ينادي: «رالف!»، إلا أنه لم يتردد أبدا. وفي الباب وقف رجل بدين، معترضا بشكل ما طريقه، قال جيمي وما زالت تلك الابتسامة الغريبة تعلو ملامحه: «مرحبا يا بن! أخيرا وصلت، أليس كذلك؟ حسنا، لنذهب. لا أعرف ما إذا كان هناك فرق كبير الآن».

إلا أن بن برايس تصرف هو الآخر بغرابة: «أظن أنك مخطئ يا سيد سبنسر، لا تعتقد أني أعرفك، إن عربتك تنتظرك، أليس كذلك؟»... واستدار بن برايس ومشى هابطا الشارع.

تحايل هارجريفز

حين قدم «الميجور بندلتون تالبوت»، من «موبايل» حامل لقب «سير»، وابنته الآنسة ليديا تالبوت للإقامة في واشنطن، اختارا لسكنهما بيتا يقع على مبعدة خمسين ياردة، من أحد أهدأ الشوارع..

كان بيتا مبنيا من الطوب، على الطراز القديم، له عند المدخل رواق معمد بأعمدة طويلة بيضاء. وكانت تظلل الساحة أشجار خرنوب ودردار كبيرة، وشجرة كتلبة كانت ترش في المواسم نوارها ذا اللونين القرنفلي والأبيض، على العشب. وكانت صفوف من أشجار البقس العالية، تؤطر السياح والممرات. وقد أثار هذا المظهر الخارجي والطراز الجنوبي، ارتياح الرجل وابنته.

في هذا البيت الذي يوفر الخصوصية والراحة، شغل الاثنان غرفا، بما فيها مكتب لـ «الميجور تالبوت»، الذي كان يعمل على إضافة الفصول الأخيرة إلى روايته «حكايا وذكريات جيش ألاباما، وقضاتها ومتهميها».

كان «الميجور تالبوت» رجلا كبير السن، من الجنوب، ولم تكن الأيام الحاضرة تثير لديه إلا قليلا من الاهتمام. ذهنه ما زال يعيش في تلك الفترة التي سبقت الحرب الأهلية، حين كانت عائلة «تالبوت» تملك آلاف الأفدنة من الأرض المزروعة بالقطن ذي النوعية الجيدة، وتملك العبيد الذين يقومون على زراعتها، وحين كان منزل العائلة يمثل ضيافة من المستوى الأميري،

ويجتذب ضيوفه من وسط أرستقراطيي الجنوب. وقد أخذ من تلك الفترة جميع ما كانت تتميز به من الكبرياء المتوارثة، والشرف الرفيع، وآداب التهذيب القديمة، كما يُستنتَج من خزانة الملابس التي تخصها، مثل تلك الملابس لم تكن صنعت أبدا، خلال الخمسين سنة الأخيرة. كان «الميجور» رجلا طويلا، لكنه كلما كان يقوم بانحناءته القديمة الرائعة، كانت التفافات معطفه الرسمي تمسح الأرض. ذاك الرداء كان أمرا يسبب الدهشة، حتى لـ «واشنطن» التي توقفت منذ أمد بعيد عن الشعور بالاستحياء، أمام المعاطف الرسمية، والقبعات عريضة الحواف، لرجال «الكونجرس» الجنوبيين. ولقد أطلق أحد النزلاء على هذا الرداء اسم «الأدب هابارد»، حيث كان مرتفع الخصر، ومنتفخ الحوض.

لكن «الميجور»، رغم كل ملابسه الغريبة، كان الجزء الكبير من صدر قميصه الفضفاض والمتكرش، وربطة العنق الشريطية السوداء المنزلقة بعقدها إلى أحد الجانبين، يثيران لدى نزلاء بيت «فارديمان» المنتخبين، الابتسام والحب. بعض كتبة الدوائر من صغار السن، كثيرا ما كانوا «يدوزنونه»، كما كانوا يدعون ذلك، حيث كانوا يثيرون شهيته للكلام في أحب موضوع إلى نفسه - تراث وتاريخ الجنوب الحبيب. خلال أحاديثه كان يقتبس بحرية من روايته «الحكايا والذكريات». لكنهم كانوا حريصين جدا على ألا يتركوه يشعر بما رتبوه، ذلك أنه رغم سني عمره الثمانية والستين، كان بمقدوره أن يشعر أشدهم وقاحة بالذنب، من خلال النظرات النافذة، لعينيه الرماديتين الثاقبتين.

أما الآنسة «ليديا»، وكانت فتاة مستقيمة، صغيرة الحجم، كبيرة السن، إذ كانت تبلغ من العمر خمسة وثلاثين سنة، وكان لها شعر طويل، ملفوف بإحكام، أكسبها مظهرا يتعدى سنها الحقيقي، وكانت هي أيضا من الطراز القديم. ولكن العراقة لم تكن تفوح منها، كما كانت تفوح من «الميجور». كانت تملك حسا اقتصاديا مرهفا، وكانت هي التي تتولى معالجة الأمور المالية للعائلة، وتقابل جميع الغرباء حين كانوا يأتون لتسديد فواتيرهم، كان «الميجور» يعتبر فواتير الإيجار، والغسيل، أمورا مزعجة زرية. وكان هؤلاء الغرباء يأتون بشكل متواصل، وكان «الميجور» يود لو يعرف: هل بالإمكان تنظيم أوراقهم، وتسديدها دفعة واحدة في وقت مناسب - يعني عندما يتم نشر «الحكايا والذكريات» وقبض مكافأته؟ وكانت الآنسة ليديا تواصل بهدوء قائلة: «سوف ندفع مباشرة، ما دام هناك قدر متبق من المال، وبعد ذلك، ربما كان عليهم الانتظار».

كان معظم نزلاء بيت السيدة «فارديمان» يغادرونه خلال النهار، حيث كان معظمهم كتبة في الدوائر، ورجال أعمال، إلا أن واحدا منهم كان يبقى في البيت طويلا، منذ الصباح وحتى الليل. هو شاب يدعى «هنري هوبكينز هارجريفز»، وكل من في البيت كان يدعوه باسمه كاملا - كان يعمل في أحد مسارح المنوعات الشعبية المشهورة ومسارح المنوعات هذه كانت قد ارتقت إلى مثل هذا المستوى الرفيع، في السنوات القليلة الأخيرة، وكان السيد هارجريفز رجلا شديد التهذيب والتواضع، حتى أن السيدة «فارديمان» لم تجد ما قد يمنع من إدراج اسمه، في لائحة نزلاء بيتها.

أما في المسرح، فقد كان هارجريفز معروفا كممثل هزلي، يقلد اللهجات جميعا، ولديه إلمام كبير باللغات الألمانية، والإيرلندية، والسويدية، والزنجية. لكن السيد هارجريفز كان طموحا وكثيرا ما كان يتحدث، عن رغبته الشديدة في النجاح، بمسرحية كبيرة.

وجد هذا الشاب في «الميجور تالبوت» ما يثير الإعجاب الشديد. وكلما باشر ذلك الرجل حكايات الجنوب الخاصة به، أو أعاد بعضا من الحكايات التي تنبض بالحياة، كنت تجد «هارجريفز» هناك أشد مستمعيه إصغاء.

لفترة من الوقت، أبدى الميجور ميلا إلى أن يثني الممثل المسرحي عن الاستمرار في عمله، إلا أن أسلوب الشاب المقنع وتقديره الواضح لقصص الشيخ، مكناه من التغلب على معارضته.

ولم يمض وقت طويل، حتى أصبح الاثنان مثل الأصدقاء القدامى. كان «الميجور» يخلو به كل عصر، ليقرأ له مخطوطة كتابه وفي أثناء السرد، لم يفشل هارجريفز أبدا في أن يضحك في الوقت المناسب. ودفع هذا بـ «الميجور» لأن يصرح للآنسة ليديا في أحد الأيام، بأن هارجاريفز الشاب يمتلك استيعابا جيدا، واحتراما كبيرا للعهد القديم. وحين يأتي وقت التحدث عن تلك الأيام الخوالي - إذا ما رغب الميجور في التحدث - كان السيد «هارجريفز» يستمع، وقد ذهب الحديث بعقله.

وعلى غرار معظم المسنين الذين يتحدثون عن الماضي، كان «الميجور» يحب التوقف عند التفاصيل، وخاصة في وصف الأيام الرائعة الشبيهة بعصر الملوك لمزارعي تلك الأيام، كان يتوقف إلى

أن يتذكر اسم الزنجي الذي حمل حصانه، أو التاريخ الدقيق لأحداث ثانوية معينة، أو عدد «بالات» القطن التي تم جنيها في مثل تلك السنة، إلا أن «هارجريفز» لم يكن يفقد صبره، أو اهتمامه أبدا، وهو يستمع إلى «الميجور»، بل على العكس، كان يثير بعض الأسئلة، حول عدد من المواضيع ذات العلاقة بالحياة في ذلك الوقت، ولم يفشل أبدا في استخلاص الأجوبة الجاهزة.

إن صيد الثعالب، ومآدب الشعر الشعبي، والأعياد الزراعية والموسمية في أحياء الزنوج، والمآدب في قاعة بيت المزرعة، حيث كانت الدعوات تنشر على مبعدة خمسين ميلا، النزاعات التي كانت تنشب من وقت لآخر مع أعيان البلدات المجاورة، مبارزة «الميجور» مع «راثبون كلبر ستون» حول «كيني تشالمرز»، التي تزوجت فيما بعد رجلا من كارولينا الجنوبية، سباقات اليخوت الخاصة، ذات الجوائز المالية الخيالية في خليج «موبايل»، المعتقدات الغريبة، العادات التي تتسم بالإسراف، مزايا ولاء قدامى العبيد، كل هذه كانت مواضيع تسلب لب كل من «الميجور» و«هارجريفز» طوال جلسات تبلغ الواحدة منها عدة ساعات.

وأحيانا في الليل، عند عودة الشاب إلى غرفته، بعد أن يكون قد أدى دوره في المسرح، يظهر «الميجور» على باب مكتبه، ويوحي إليه بمكر. فيدخل «هارجريفز» ليجد منضدة صغيرة، مجهزة بزجاجة شراب، صحن سكر، فواكه وحزمة نعنع أخضر طازج.

ويبدأ «الميجور» حديثه، بأسلوبه الرسمي دائما، قائلا: يجول في خاطري، أحيانا، أنك ربما كنت قد وجدت مهامك - في مكان عملك - متعبة بما فيه الكفاية، بحيث لا يمكنك يا سيد

«هارجـريفـز»، من أن تقدر، مـا كان يدور فـي رأس الشـاعـر، حين كتب «حافظ الطبيعة البارع» في أحد مواسمنا الجنوبية.

وكانت مشـاهدة «الميجـور» وهو يريت المنضـدة مشـهدا فـاتنا، يأسر مشـاعر «هارجريفز». بأي رقة هرس النعنع، بأي سحـر فتان احتسب الكميات، بأي عناية بـالغة غطى الشراب بوهـج الفـواكه القـرمـزي، على قـاعـدة من أهدابهـا الخـضـراء الداكنة! ثم روح الضيافة والسخاء اللذين قدم بهما ذلك، بعد أن يضغط عيدان الشعير التي يقع عليها الاختيار، لتغرق في أعماق الشراب.

بعـد حـوالي أربعـة أشـهـر، فـي «واشنطن»، اكـتـشـفت الآنـسـة «ليديا» ذات صباح، أنهم قد نفد ما لديهم من مال. كانت «الحكايا والذكريات» قد أكملت، لكن الناشرين لم يتهافتوا على باقة ذكاء وفطنة ألابـامـا. إيجـار البـيت الصـغـيـر، الذي مـا زالوا يملكونه في «مـوبايل» يتبـقـى له شـهـران. وإيجـار البيت الذي يسكنانه يستحق بعد ثلاثة أيام. دعت الآنسة «ليديا» والدها، ليقدم لها المشورة.

قال بنظرة تفيض بالصدمة «لا مال»؟

من المزعج أن يطالب المرء دائما بهـذه المبـالغ الصـغـيـرة، حـقـا، إني...، فتش الميجور جيوبه، فلم يجد سوى ورقة من فئة دولارين في جيبه، فأعادها إلى جيب صدريته.

قـال: علي أن أجـد حـلا لذلك حـالا، يا ليـديا... لطفـا أعطيني مظلتي، إذ سـوف أذهب إلى البلدة فـورا. رجل «الكونجـرس» من منطقـتـا، الجنرال «فولجـهام» أكد لي قـبل بضـعـة أيام أنه سـوف يستخدم نفوذه، ليضمن نشر كتابي في وقت قريب. سـوف أذهب إلى فندقه حالا، وأرى أي ترتيبات جرى إجراؤها».

بابتسامة صغيرة حزينة، راقبته الآنسة «ليديا» وهو يحكم أزرار «الأب هابارد» ويغادر، متوقفا على الباب، كما كان يفعل دائما، ليقوم بانحناءة كبيرة.

ذلك المساء، في الظلام، عاد. يبدو أن رجل «الكونجرس»، «فولجهام»، قد قابل الناشر الذي أخذ مخطوطة «الميجور» ليقرأها. قال ذلك الرجل إنه لو أن الحكايا... جرى اختزالها بمقدار النصف، حتى يتم استبعاد التحيز الفئوي والطبقي، الذي يغرق فيه الكتاب، من الغلاف إلى الغلاف، فسوف يفكر بنشره. أخذت «الميجور» سورة من الغضب، إلا أنه حافظ على رباطة جأشه، متقيدا بأخلاقياته المعهودة، ما أن أصبح في حضرة الآنسة «ليديا».

قالت الآنسة «ليديا»، وقد علا أنفها شيء من التغضن: «يجب أن نحصل على المال... أعطني الدولارين، وسوف أبرق إلى العم رالف ليرسل بعض المال الليلة».

سحب «الميجور» مغلفا صغيرا من جيب صدريته، وألقاه فوق المنضدة، وقال بلهجة لطيفة: «ربما كان ذلك حمقا، لكنني وجدت قيمة المبلغ ضئيلة لدرجة مضحكة، فاشتريت بطاقتين لحضور المسرحية الليلة. إنها دراما جديدة عن الحرب، يا ليديا. فكرت أنك سوف تسرين بمشاهدة عرضها الأول في واشنطن، قيل لي إن المسرحية أظهرت الجنوب بصورة مشرفة، وأعترف بأنني أحب أن أرى العرض بنفسي». رفعت الآنسة «ليديا» يديها بحركة صامتة تدل على اليأس.

ولذا، وما دامت البطاقتان قد اشتريتا، فإنه يفضل الذهاب إلى المسرحية وهكذا، جلسا في ذلك المساء ليشهدا العرض الحي،

حتى أن الآنسة ليديا كانت مستعدة للهبوط بمتاعها إلى المرتبة الثانية هذه الساعة.

«الميجور»، في بدلة نظيفة من الكتان ومعطفه غير العادي، الذي لا يبدو منه سوى أين أحكمت أزراره، وشعره الأشيب الناعم المسرّح، بدا حقا في وضع جيد ومميز، رفعت الستارة عن المشهد الأول بـ «زهرة الماجنوليا». وكان يجسد مشهد مزرعة جنوبية نموذجية. فبدر عن «الميجور» ما يفضح اهتمامه.

تعجبت الآنسة ليديا واكزة ذراعه، ومشيرة إلى برنامج الحفل، وهي تقرأه، وضع «الميجور» نظارته وقرأ السطر الذي أشار إليه إصبعها، في أدوار الشخصيات:

(الكولونيل ويبستر كالهاون... هـ. هوبكينز هارجريفز) قالت الآنسة «ليديا»: «إنه صديقنا السيد «هارجريفز».. لا بد أن هذا هو ظهوره الأول في المسرحية الكبيرة التي طالما تمنى أن يمثل فيها، إنني في غاية السعادة من أجله».

ولم يظهر «الكولونيل ويبستر كالهاون»، على خشبة المسرح، حتى الفصل الثاني. وحين دخل، استنشق «الميجور تالبوت» الهواء بصوت مسموع، وهو يحملق في «كالهاون».وبدا كأنه قد تجمد في مكانه، أما الآنسة «ليديا» فقد أصدرت بعض الزعيق غير المفهوم، وعصرت برنامج المسرحية في يدها، ذلك أن الكولونيل كالهاون، أظهر بشكل يشبه «الميجور تالبوت»، تمام الشبه، الشعر الأبيض، الناعم، الطويل، الأشم، صدر القميص الفضفاض، وربطة العنق الفضية ذات العقدة أسفل إحدى الأذنين تقريبا، كل ذلك أظهر بشكل متقن، وإضافة إلى ذلك، ولكي يحكم التشابه، ارتدى معطفا

يشكل نسـخـة مطابقـة، لمعطف الميـجـور الفـريد: ياقـة عـاليـة، فضفاضا، دقيق الخصر، عريض الحوض، يزداد طوله في الجهة الأمـاميـة، بمقدار قدم عن الخلفيـة، بحيث يسـتحيل أن يكون قد نقل تصـمـيـمـه عن نموذج آخـر. منذ تلك اللحظة تسـمـر «الميـجـور» والآنسـة «ليديا» في مقـعـديهـمـا، وثبـتـا نـواظرهـمـا على النسـخـة المزيفة من «تالبوت» متـعـجـرف، وصـفـه «الميـجـور» فـيـمـا بعـد، بأنه كان «يجر أذياله عبر مستنقع افتراءات مسرح فاسد».

لقد استغل هارجريفز فرصته جيدا، أتقن أسلوب «الميجور» في الكلام، ولهـجـتـه، ونبـرتـه - مـبـالـغـا في كل منهـا، لـغـرض العـرض المسـرحي. وحين أدى تلك الانحناءة الـرائعـة، التي كـان «الميـجـور» مـولعـا بتصـورهـا، على أنهـا قـمـة كافة التـحـيـات، انطلق الجـمـهـور فجأة بموجة عارمة من التصفيق الحاد.

جلسـت الآنسـة «ليـديا» مـتـسـمـرة، لا تقـوى على الحـراك، ولا تجـرؤ على اسـتـراق نظرة إلى والـدهـا. وأحـيـانـا كـانت يدهـا الموضوعة بجواره، ترفع لتسند وجنتها، لتحجب الابتسامة، التي لم تستطع، رغم عدم رضاها، أن تكبحها.

وبلغ «هـارجـريفـز» قـمـة الوقـاحـة في تقليـده في الفـصـل الثـالث، في مـشـهـد احتـفـاء الكولونيل «كـالهـاون» بعـدد من مـزارعـي الجـوار في «عرينه».

واقـفـا عند منضـدة في وسط المسـرح، وأصـدقـاؤه قـد تجـمـهـروا حوله، يلقي «مونولوجـه» الخاص الذي يستحيل تقليده، والذي ينتقل من مـوضـوع إلى آخـر، والذي اشتهـر جدا في «زهرة الماجنوليـا»، في الوقت نفسه الذي يعد فيه المشروبات للحفل، بكل رشاقة.

جلس «الميجور تالبوت» وقد استبدت به سورة الغضب، يستمع إلى أفضل قصصه تعاد روايتها، ونظرياته وهواياته المحببة، وقد تم تطويرها، والتوسع فيها، وحلم «الحكايا والذكريات»، يقدم بالمبالغة والتشويه. حكايته المفضلة - حول مبارزته مع «راثبون كالبرستون» - لم تحذف، بل قدمت بمزيد من التأجج، والأنوية والحركة.

انتهى «المونولوج» بمحاضرة صغيرة لطيفة عذبة، ظريفة، عن فن تحضير الشراب، وكانت المحاضرة مصحوبة بعرض عملي، هنا تم تقديم علوم الميجور تالبوت، التي تكشف الذوق، والاستعراضية، في الوقت نفسه، حتى أدق تفاصيلها - بدءا من طريقته اللطيفة في تحضير الأعشاب العطرية: الوحدات بالألف من القمحة (*)، كثير جدا من الضغط، أيها السادة، وتستخرجون المرارة، بدلا من العطر، من هذه النبتة المباركة - وانتهاء باختياره البالغ الحرص لعيدان الشعير.

في نهاية المشهد، ارتفعت أصوات المشاهدين ضاجة بالتقدير، والإعجاب. تصوير الشخصية كان دقيقا، وواثقا وعميقا، إلى حد أنسى معه المشاهدين الشخصيات الرئيسية في المسرحية. وبعد مطالبات متكررة، ظهر «هارجريفز» أمام الستارة، وانحنى، وقد أحمر وجهه الطفولي والتمع ببريق النجاح.

أخيرا، استدارت الآنسة «ليديا» ونظرت إلى «الميجور» كانت فتحتا الأنف تعملان كخيشومي سمكة، ألقى بيديه المرتجفتين على ذراعي مقعده، ليستند إليهما في نهوضه. قال بغصة: «سوف

(*) القمحة: مقياس للوزن.

نذهب، يا ليديا... إنه تصوير - شنيع وقبل أن يتمكن من النهوض، جذبته ليعود إلى مقعده، سوف ننتظر إلى نهاية المسرحية. أتريد أن تعلن عن الأصل، من خلال عرض معطفك؟ وهكذا بقيا حتى النهاية.

لا بد أن نجاح «هارجريفز»، قد أبقاه متأخرا تلك الليلة، ذلك أنه لم يظهر على مائدة الإفطار، والغداء حوالي الثالثة عصرا، نقر على باب مكتب «الميجور تالبوت»، فتح «الميجور» الباب ودخل «هارجريفز» ويداه مليئتان بصحف الصباح - مليئتان بانتصاراته، إلى حد لم يلاحظ معه، شيئا غير عادي، في سلوك «الميجور».

بدأ حديثه باعتزاز، قائلا: لقد وزعته عليهم الليلة الماضية، أيها «الميجور» لقد جمعت حصادي، وأرى أنني قد أصبت الهدف. إليك ما تقوله صحيفة الـ «بوست»:

«استيعابه وتصويره للكولونيل الجنوبي، الذي ينتمي إلى العهد القديم، بحذلقته العابثة. ومظهره غير المألوف. ومصطلحاته وعباراته الظريفة، مجده العائلي الذي أكل الدهر عليه وشرب، قلبه الطيب حقا، إحساسه العميق بالشرف، بساطته المحبوبة، كل ذلك يشكل أفضل تصوير لدور شخصية، على خشبات المسرح، في هذه الأيام. المعطف الذي يرتديه الكولونيل «كالهاون»، في حد ذاته، ثمرة عبقرية متفتحة. لقد شد السيد هارجريفز انتباه جمهوره ببراعة فائقة.

«كيف يبدو ذلك، أيها الميجور، في نظر من يحضر العرض، للمرة الأولى؟» رد الميجور بصوت جافٍ، يدل على تطير صاحبه: «لقد كان لي شرف حضور أدائك المميز جدا، يا سيد، الليلة الماضية».

بدت علي «هارجـريفـز» إمـارات الارتبـاك: «أكنت هنـاك؟ لم أعرف أبدا أنك - لم أعرف أنك تهتم بالمسرح. أتبع ذلك بتعجب صـريح... آه، أقـول، يا مـيجـور تالبـوت لا تغـضب. أعـرف أنني أخذت الكثيـر من المؤشرات منك، الأمر الذي ساعدني على القيام بأداء رائع في الدور الذي مـثلتـه. لكنه نمط - كـمـا تعلم - وليس حالة فـردية. وقد أدرك الجمهور ذلك. إن نصف رواد ذلك المسرح جنوبيون، وقد ميزوا ذلك».

رد الميجور الذي بقي واقفا: «يا سيد هارجريفز، لقد ألحقت بي إهانة لا تمحى. لقـد تهكمت على شـخـصـي، وخنت ثقـتي بك خيانة كبرى، وأسأت تقدير ضيافتي. لو كنت أرى أنك تملك النزر اليسيـر من صفات الرجل المهذب، أو السلوك المفتـرض، فسوف أطلب منك، بالسن الذي أنا فيـه، أن تغادر يا سيـد. سوف أطلب منك أن تغادر الغرفة، يا سيد».

بدا على الممثل شيء من الحيرة، أمام صعوبة أن يأخذ بكلمات الرجل المسن، على معناها الحـقيقي، وقـال معـتـذرا: «إنني آسف حقيقة أنك شعرت بالإهانة. إننا هنا في الشمـال، لا نأخذ الأمور، كما تـأخذونهـا أنتم. أعـرف رجـالا مـستـعـدين لشـراء نصف المنزل، في سبـيل أن يتم عـرض شـخـصـيـاتهم، على خشبـة المسـرح، قـال الميـجـور بشموخ: «أولئك ليسوا من الاباما، يا سيـد». قـال الرجل: «ربما لا. إن لي ذاكـرة حـادة جـدا يا أيهـا الميـجـور، دعني اقـتـبس بضـعـة أسطر من كـتـابك. ردا على نخب، في مـأدبة مـقـامـة في ميليدج فيل... أعتقد ميليدج فيل، أعتقد أنك قلت واعتزمت أن تدخل هذه الكلمات فيه:

«رجل الشمال رجل مجرد من العاطفة، أو الحرارة، كليا، إلا إذا كانت هذه المشاعر تتعلق بمنفعته التجارية الخاصة. إنه سوف يتحمل غير آسف، أي اتهام يمس شرفه، أو شرف أحبائه، إن لم يكن له تبعات من الخسارة المالية. عند الإحسان يعطي بيد سخية، لكنه يعلن إحسانه هذا، على رؤوس الأشهاد».

«هل تعتقد أن تلك الصورة أكثر إنصافا من تلك التي شاهدتها للكولونيل كالهاون، الليلة الماضية؟».

قال «الميجور» وقد تخشب لقد بنيت أنا وضعي على أساس متين، ولتعلم أن أسلوب المبالغة هو من محسنات الحديث العام.

أجاب هارجريفز: وماذا عن الوصف في التمثيل العام؟ أصر الميجور غير متسامح: «لقد كان كاريكاتيرا شخصيا. لا بد أن أرفض التسامح بشأنه يا سيد».

قال هارجريفز والابتسامة تعلو وجهه «آمل أن تفهمني. أريدك أن تعلم أنني لم أحلم يوما بتوجيه الإهانة إليك. في مهنتي، إنني أملك الحياة بكاملها. آخذ ما أشاء، وما أستطيع، وأعيده بالإضافة إلى الأضواء، والآن إذا اردت، فلندع الأمور تسير على هذا الشكل. لقد أتيت لكي أراك من أجل شيء آخر. لقد كنا صديقين حميمين طوال بضعة أشهر، وسوف أخاطر بمضايقتك، من جديد. أعرف أنك في وضع مالي صعب - لا يهمك كيف عرفت، إن دار ضيافة، ليست بالمكان الذي يحافظ فيه المرء على سرية هذه الأمور - وأريدك أن تسمح لي بمساعدتك، لتخرج من هذه الضائقة. فكثيرا ما وقعت أنا نفسي فيها. كنت أتقاضى راتبا متواضعا، طوال الفصل، وقد

ادخرت بعض المال، ويطيب لي أن أقدم مائتين - أو حتى أكثر - حتى تستعيد...».

مد الميجور ذراعه هاتفا: توقف، يبدو أن كتابي لم يكذب، بعد كل هذا. إنك تظن أن مساعدتي المالية، سوف تشظي جراح الشرف. لا يعني، في أي ظرف من الظروف، أن أقبل قرضا، من رجل عرفته معرفة عابرة، وفيما يتعلق بك يا سيد، فإنني مستعد لأن أجوع، قبل أن أفكر في عرضك المهين، بتسوية مالية للأمور التي قمنا بمناقشتها. أرجو أن أكرر طلبي، فيما يتعلق بمغادرتك البيت.

غادر هارجريفز دون أن يضيف كلمة. وغادر البيت أيضا في اليوم نفسه، منتقلا، كما بينت السيدة فارديمان على مائدة العشاء، إلى مسكن أكثر قربا من منطقة المسرح في وسط البلدة، حيث إن زهرة الماجنوليا قد حجزت للأسبوع المقبل بكامله.

كان الوضع حساسا بالنسبة إلى الميجور تالبوت، والآنسة ليديا. لم يكن هناك في واشنطن، من يمكن لوساوس الميجور أن تسمح له بطلب قرض منه. الآنسة ليديا كتبت رسالة إلى العم رالف، لكن كان من المشكوك فيه، أن تسمح ظروف القريب القاسية بتقديم العون. اضطر الميجور إلى تقديم كلمة اعتذار للسيدة فارديمان، فيما يتعلق بالتأخير في دفع الإيجار، متعللا بـ «عدم تسديد الإيجارات، والتأخر في إجراء التحويلات المالية»، بنبرة بدا عليها الارتباك الشديد.

وجاء الفرج من مصدر غير متوقع أبدا. ففي وقت متأخر من عصر أحد الأيام، جاءت الخادمة لتعلن قدوم رجل زنجي، يريد مقابلة الميجورتالبوت. طلب الميجور إرساله إلى مكتبه وسرعان ما

ظهر رجل زنجي هرم في المدخل، وقبعته بيده، ينحني محييا، وقد رد قدمه بحركة خرقاء إلى الوراء.

كان ملبسه رسميا، حيث كان يرتدي بذلة سوداء فضفاضة. وحذاؤه الكبير، وغير الأنيق، كان يلتمع ببريق معدني، يذكر بطلاء المدافئ. شعره الكث كان رماديا - يكاد يستحيل إلى البياض. بعد منتصف العمر، يصعب على المرء أن يقدر عمر الزنجي. وربما يكون هذا الرجل قد عاش من السنين، بقدر الميجور تالبوت.

وكانت كلماته الأولى: «أعتقد أنك لا تعرفني، بندلتون مارس». نهض الميجور وتقدم من صاحب تلك الكلمات ذات الأسلوب القديم المألوف. كان من غير ريب، أحد زنوج المزرعة القدامى، إلا أن أولئك الرجال كانوا قد تشتتوا في أرجاء البلاد، ولا يستطيع الميجور الآن أن يتذكر الصوت، أو الوجه. رد بلطف، قائلا: إنني لا أعرفك. قال الرجل ألا تذكر موسى سيندي، بندلتون مارس، الذي هاجر فور انتهاء الحرب؟

رد الميجور ماسحا جبهته برؤوس أصابعه، قائلا: انتظر لحظة. كان يحب أن يتذكر كل شيء، يرتبط بتلك الأيام الحبيبة. أخذ يتأمل مكررا: «موسى سيندي، لقد كنت تعمل وسط الخيول - تروض المهار. نعم، إنني أتذكر الآن. بعد الاستسلام، أخذت اسم... لا تقل - ميتشيل، وذهبت إلى الغرب - إلى نبراسكا.

كست وجه الرجل الهرم ابتسامة عريضة، وقال: «نعم يا سيدي، نعم يا سيدي. إنه هو، إنها هي. نيوبراسكا. إنه أنا - موسى ميتشيل، العم الكبير موسى ميتشيل، هذا ما يناودنني به الآن. مارس الكبير، والدك، أعطاني زوجا منها، مهار البغال، حين تركت لكي أباشر الرحيل بها.

إنك تذكرها، تلك المهار، مارس بندلتون رد الميجور قائلا: «لا أظن أنني أتذكر المهار. إنك تعلم أنني تزوجت في السنة الأولى من الحرب، وكنت أعيش في بيت فوللينزبي القديم. لكن اجلس، اجلس، أيها العم موسى. إنني سعيد برؤيتك. آمل أن تكون قد صادفت النجاح».

أخذ العم موسى مقعدا، ووضع قبعته بعناية على الأرض بجانبه، وقال: «نعم يا سيدي. أخيرا أصبحت شهيرا جدا. في البداية ذهبت إلى نيويراسكا، حيث جاء الناس من جميع الأنحاء إليَّ ليروا مهار البغال تلك. لم يسبق لهم أن شاهدوا بغالا كتلك في نيويراسكا. وبعت لهم تلك البغال، مقابل ثلاثمائة دولار نعم... يا سيدي - ثلاثمائة دولار. ثم فتحت محل حدادة، وجمعت بعض المال، واشتريت أرضا.

أنجبت أنا وزوجتي سبعة أطفال، وقمنا بتربيتهم. وجميعهم يعيشون حياة جيدة، ما عدا اثنين منهم، قد توفيا. قبل أربعة أعوام، جاءت شركة سكة حديد، وأنشأت ضاحية مقابل أرضي، وهكذا بندلتون مارس، العم موسى أنا، أساوي عشرة آلاف دولار، من المال، والممتلكات، والأرض».

قال الميجور من أعماق قلبه: «إنني سعيد بأن أسمع هذا... سعيد بأن أسمع هذا».

قال الرجل: «وتلك الطفلة لبندلتون مارس الصغير - تلك التي تدعونها الآنسة ليدي. أعتقد أن تلك الطفلة الصغيرة قد كبرت، حتى لم يعد يعرفها أحد».

خطا الميجور نحو الباب وهتف ليديا، يا عزيزتي، هل لك أن تأتي؟

جاءت الآنسة ليديا من غرفتها ودخلت إليهما وقد بدا عليها أنها قد كبرت، وأصبح لديها بعض الهموم.

هتف الرجل حبيبتي، الآن ماذا سأقول لك؟ عرفت أن تلك الطفلة سوف تكون قد كبرت كثيرا. ألا تذكرين العم موس، يا طفلتي؟

شرح الميجور لها الموقف، قائلا: «إنه موس، العم سيندي، ياليديا. لقد ترك «سيني ميد» واتجه إلى الغرب عندما كنت في الثانية من عمرك.

قالت الآنسة ليديا: «حسنا. من الصعب أن تتوقع مني أن أتذكرك، أيها العم موس، وأنا في ذلك السن. وكما تقول أنت، فقد كبرت كثيرا، ومر زمن طويل على ذلك. لكنني سعيدة برؤيتك، حتى لو لم أكن أتذكرك».

وكانت سعيدة حقا. وكذلك كان الميجور. رجل من الماضي، جاء ليعيد إليهم تلك الذكريات السعيدة. جلس ثلاثتهم ليتحدثوا عن الأزمنة الغابرة، وكان الميجور والعم «موس»، يصحح أو يذكّر كل منهما الآخر، بينما كانا يراجعان مشاهد، وأيام المزرعة.

استفسر الميجور عما جاء الرجل من أجله إلى هذه المدينة. شرح الرجل، قائلا: «العم موس، أنا، رجل موفد إلى الجمعية المعمدانية الكبيرة في هذه المدينة. لم يسبق لي أن وعظت، لكن من حيث كوني أحد رجال الكنيسة القدامى، وقادر على تسديد ما يلزمني من نفقات، فقد أرسلوني إلى هنا».

استفسرت الآنسة ليديا: «وكيف عرفت أننا في واشنطن؟».

أجاب الرجل: «هناك رجل زنجي يعمل في الفندق، الذي أنزل فيه، جاء من موبايل. أخبرني أنه شاهد بندلتون مارس خارجا من

هذا البيت في صباح أحد الأيام». وأضاف العم موس قائلا، ويده تمتد إلى جيبه: «ما جئت من أجله، -بالإضافة إلى رؤية أهل البلد - هو أن أسدد لـ بندلتون مارس ما أدين به إليه».

فوجئ الميجور وسأل تدين به إليَّ؟ سلم الميجور لفافة من الأوراق المالية، قائلا: «نعم يا سيدي - ثلاثمائة دولار... عندما تركت، قال مارس الكبير: (خذ مهار البغال، يا موس، وإذا ما أصبحت قادرا، ادفع ثمنها). نعم يا سيدي، هذه كلماته. لقد تركت الحرب مارس الكبير نفسه فقيرا. مارس الكبير توفي، وانتقل الدين إلى بندلتون مارس. ثلاثمائة دولار. العم موس قادر تماما على الدفع الآن. وعندما اشترت شركة سكة الحديد أرضي، جئت لأدفع ثمن البغال. عد المال، يا بندلتون مارس. هذا هو الثمن، الذي بعت البغال مقابله. نعم يا سيدي».

تساقطت الدموع من عيني الميجور تالبوت، أخذ بيد العم موس، وألقى بيده الأخرى على كتفه. قال بصوت مرتجف: «أيها الخادم الكبير المخلص... لا أمانع في أن أقول لك إن بندلتون مارس أنفق آخر دولار، بقي معه في هذا العالم، قبل أسبوع. سوف نقبل هذا المبلغ، أيها العم موس، ما دام بشكل ما، عبارة عن تسديد دين، كما أنه عربون ولاء وإخلاص النظام القديم. ليديا، يا عزيزتي خذي المبلغ. أنت أفضل مني في تدبر أمر إنفاقه».

قال العم موس: «خذه يا حبيبي. إنه يخصك. إنه مال تالبوت».

بعد ذهاب العم موس، صرخت الآنسة ليديا صرخة فرح، وأدار

الميجور وجهه نحو إحدى الزوايا، ودخن غليونه حيث تصاعد دخانه كالبركان.

الأيام التالية شهدت عائلة تالبوت وقد خلت إلى السكينة، والسلام. اختفت ملامح الهم عن وجه الآنسة ليديا. وظهر الميجور في معطف رسمي جديد، بدا فيه كتمثال شمع يخلد ذكرى عصره الذهبي. وكان رأي ناشر آخر قرأ «الحكايا والذكريات» هو أنه، مع بعض اللمسات، وتخفيف شيء من تسليط الأضواء، يمكنه أن يحيل الكتاب إلى كتاب مثير ورائج. مع هذين الحدثين، أصبح الوضع مريحا، فلمسة الأمل، غالبا ما تكون أشد عذوبة من النعم التي تحققت.

في أحد الأيام، بعد أسبوع من الحظ السعيد، أتت الخادمة برسالة إلى الآنسة ليديا، وهي في غرفتها، وقد حمل خاتم البريد عليها اسم مدينة نيويورك، لم تكن تعرف أحدا هناك. وبلهفة من حيره الأمر، جلست إلى منضدتها. وفتحت الرسالة بمقص. وإليك ما قرأته:

«عزيزتي الآنسة تالبوت،

رأيت أنك سوف تكونين سعيدة، إذ تعلمين عما صادفته من نجاح مالي. لقد تلقيت وقبلت عرضا بالعمل مقابل مائتي دولار أسبوعيا، من قبل شركة أسهم في نيويورك، لكي أمثل الكولونيل كالهاون في «زهرة الماجنوليا».

وهناك أمر آخر، أريدك أن تعرفيه. وأظن أن من الأفضل ألا تخبري الميجور تالبوت. لقد كنت تواقا إلى تقديم ترضية، مقابل المساعدة الكبيرة التي قدمها لي في دراسة الدور، والمزاج السيئ

الذي سببه له. لقد رفض أن يتركني أفعل ذلك. وهأنذا قد فعلت، على أي حال لقد كان من السهل علي تدبر أمر ادخار الثلاثمائة دولار.

المخلص لك

هـ. هوبكنز هارجريفز

ملاحظة: كيف كان أدائي لدور العم موس؟».

كان الميجور مارا عبر القاعة، فشاهد غرفة الآنسة ليديا مفتوحة، فتوقف. سأل قائلا: «هل من بريد لنا هذا الصباح، يا عزيزتي ليديا؟ أخفت ليديا الرسالة في إحدى ثنايا ثوبها، قائلة: «جاءت الـ موبايل كرونيكل. إنها على المنضدة في غرفة مكتبك».

رجلا عيد الشكر

من بين الأيام، هناك يوم لنا(*). هناك يوم نعود فيه نحن «الأمريكيين»، الذين لم نكوّن «أنفسنا» إلى بيتنا القديم، لنتناول البسكويت، ونتعجب كم تبدو المضخة القديمة الآن أقرب إلى الرواق، مما كانت تبدو عليه في الماضي. ليتبارك هذا اليوم. الرئيس «روزفلت» يمنحنا إياه. نسمع بعض الكلام من «المتطهرين»(**)، لكن عليك ألا تقف عند حدود تذكر من كانوا. أراهن أن بمقدورنا التفوق عليهم، إذا ما حاولوا القدوم من جديد. «صخور بلايموث»(***)؟ حسنا، هذا يبدو مألوفا بدرجة أكبر. الكثيرون منا كان عليهم الهبوط إلى الدجاج، منذ أن تمكن «اتحاد الديك الرومي»(****) من العمل في ميدانه ذاك.

لكن شخصا ما في «واشنطن» يقوم بتسريب المعلومات مقدما، لينبههم إلى مظاهر عيد الشكر هذه.

المدينة الكبيرة، شرقي سبخات التوت البري، جعلت من عيد الشكر تقليدا. آخر خميس في نوفمبر، هو اليوم الوحيد في السنة، الذي تتعرف فيه على ذلك الجزء من «أمريكا»، الواقع على

(*) عيد تاريخي وقومي، وديني في الولايات المتحدة، بدأ حين تمكن الحجاج من الصمود بمستوطنتهم الأولى عبر شتاء قاس.

(**) «البيوريتان» جماعة بروتستانتية في إنجلترا ونيو إنجلند في القرنين ١٦ و١٧، طالبت بتبسيط طقوس العبادة، وبالتمسك الشديد بأهداب الفضيلة.

(***) «بلايموث روك» موقع على شاطئ بلايموث، تغطية مظلة ويقصده السياح، وهناك توجد الـ «ماي فلور»، سفينة أولئك المستوطنين.

(****) مؤسسة احتكارية.

الجانب الآخر من النهر. إنه اليوم الوحيد الذي يعتبر أمريكيّا خالصا. نعم، يوم احتفال «أمريكي» كليا.

والآن، لننتقل إلى القصة، التي نوردها لنبرهن لك على أن لدينا في هذا الجانب من المحيط، تقاليد تستحيل أكثر قدما بسرعة أكبر بكثير، من تلك التي في انجلترا - والفضل يعود إلى مشروعنا المحلي للنهوض.

عندما تدخل «ميدان الاتحاد» من الشرق، عبر الممر المقابل للنافورة، ستجد «ستافي بيت» على ثالث مقعد إلى يمينك. في كل عيد شكر، وطوال تسع سنوات، كان يأخذ مقعده هناك، في الساعة الواحدة، من غير إبطاء، ذلك أنه في كل مرة كان يفعل فيها ذلك، تحدث له أمور - أمور ديكنزية»(*)، تجعل معطفه ينتفخ في جزئه الواقع فوق القلب، وبشكل مساوٍ في الجانب الآخر. لكن في هذا اليوم، كان يبدو أن ظهور «ستافي بيت» في مكان الموعد، أتى نتيجة عادة، أكثر من كونه نتيجة الجوع السنوي، الذي يبدو أن المحسنين يفكرون أنه يصيب الفقير في مثل تلك الفترات المتباعدة.

من المؤكد أن «بيت» لم يكن جائعا. لقد جاء لتوه من مأدبة سلبته جميع قواه، فيما عدا القوى اللازمة للتنفس والحركة، كانت عيناه تشبهان حبتي كشمش مصفرتين، ضغطتا بقوة داخل رأس من المعجون، منتفخ ومطلي بالصلصة. كذلك فقد أتى تنفسه على شكل صفير قصير متكرر، وكان أنفه عبارة عن لفة «سيناتورية» من النسيج الدهني، محرومة من التلاؤم الأنيق، مع

(*) نسبة إلى تشارلز ديكنز، روائي إنجليزي (١٨١٢ - ١٨٧٠).

ياقة معطفه المرفوعة للأعلى. كانت الأزرار التي ثبتت على ملابسه، بأصابع لطيفة تنتمي إلى «الخلاص»(*) قبل أسبوع، قد تساقطت حوله كحب «الفشار». كان أشعث، وقميصه المتشقق مفتوحا في مقدمته، فيكشف عن عظم الترقوة، لكن نسيم نوفمبر، الذي يحمل كتلا رقيقة من الثلج، لم يصبه سوى بالبرودة المستحبة. ذلك أن «ستافي بيت» كان مثقلا بالسعرات الحرارية، التي أنتجها عشاء سخي جدا، يبتدئ بالمحار وينتهي بالحلوى، ويتضمن (بدا له ذلك) الديك الرومي المشوي، والبطاطا المشوية، وسلطة الدجاج، والفطير، والبوظة، الموجودة في العالم. نتيجة ذلك جلس متخما، ينظر إلى العالم برضى ما بعد العشاء.

كانت الوجبة غير متوقعة. كان يمر بقصر مبني من الطوب الأحمر، قرب أول «الشارع الخامس»، حيث تعيش فيه سيدتان هرمتان من عائلة عريقة، تقدران التقاليد. حتى أنهما أنكرتا وجود «نيويورك»، وكانتا تعتقدان أن «يوم الشكر» كان معلنا لـ «ميدان واشنطن» وحده فقط، أحد تقاليدهما الراسخة كان إيقاف خادم على البوابة الخلفية، وتزويده بتعليمات تأمر بدعوة أول عابر سبيل جائع، يمر بعد أن تسمع دقات ساعة الظهيرة، وتقديم الطعام والشراب له إلى أن يكتفي. وصادف أن مر «ستافي بيت» بهم في طريقه إلى المنتزه، فأدخله الخدم إلى القصر، عاملين وفق تقليده المتبع.

(*) جيش الخلاص، منظمة مسيحية عالمية أُسست عام ١٨٦٥، مكرسة نفسها للتبشير والعمل الاجتماعي في الأوساط الأشد فقرا.

بعد أن حدق «ستافي بيت» أمامه بشكل مستقيم، مدة عشر دقائق، انتبه إلى رغبته بمجال رؤية أكثر تنوعا. وبجهد جبار، حرك رأسه ببطء إلى اليسار. وعلى الإثر جحظت عيناه خوفا، وتوقف تنفسه، والتوت قدماه الخشنتان، اللتان تنتهي إليهما ساقاه القصيرتان، ضاغطتين على الحصباء. ذلك أن الرجل المسن كان آتيا عبر «الشارع الرابع»، باتجاه مقعده.

في كل «يوم شكر» طوال تسع سنوات، كان الرجل المسن يأتي إلى هناك، ويجد «ستافي بيت» على مقعده. وكان هذا سلوكا، يحاول الرجل المسن أن يجعل منه تقليدا خاصا به في كل «يوم شكر». طوال تسع سنوات كان يجد «ستافي بيت» هناك، ويقوده إلى مطعم، ويراقبه وهو يتناول غذاء دسما. إنهم يفعلون هذه الأمور في إنجلترا دون تفكير، لكن هذه بلاد فتية، وتسع سنوات ليست بالمدة التي يستهان بها. كان الرجل المسن وطنيا أمريكيا وفيا، يعتبر نفسه رائدا من رواد التقاليد «الأمريكية». وحتى نشكل صورة رائعة، علينا أن نواصل فعل شيء واحد لمدة طويلة، من دون أن نتركه يغيب عنا. شيء مثل جمع «الدايمات»(*) الأسبوعي، في التأمين الصناعي. أو تنظيف الشوارع.

تحرك الرجل المسن إلى الأمام بجلال، نحو التقليد الذي كان يتعهده. وحقيقة فلم يكن الإطعام السنوي لـ «ستافي بيت»، أمرا يعبر عن شخصية وطنية، مثل «الماجنا كارتا» أو مربى الإفطار في «انجلترا». لكنه كان خطوة على الطريق، كانت خطوة شبه

(*) الدايم: وحدة نقدية تساوي عشرة سنتات.

إقطاعية. إنه يبين، على الأقل، أن تقليدا ما ليس بالمستحيل على «أمريكا» الجديدة.

كان الرجل المسن نحيفا طويلا، يبلغ من العمر ستين سنة. كان يرتدي لباسا كاملا أسود، ويضع نظارة من الطراز القديم، لا يمكنها أن تستقر فوق أنفك. وكان شعره أشد بياضا ورقة من السنة الماضية، وبدا أنه قد ازداد اعتمادا على عصاه الغليظة، ذات العقدة العلوية، والمقبض الملتوي.

ولدى اقتراب محسنه العريق أخذ «ستافي» يشهق، ويرتجف، مثل كلب سمين مدلل، تقوده امرأة، يواجه أحد كلاب الشوارع، يعوي عليه.

كان سيطير، لكن كل مهارات «ستانتوس ديمونت»(*)، ما كانت لتجعله يفارق مقعده. كان رجال السيدتين الهرمتين قد أحسنوا القيام بعملهم.

قال الرجل المسن: «صباح الخير... يسعدني أن أرى أن سنة أخرى انقضت، تاركة إياك تتحرك بصحة جيدة، في هذا العالم الجميل. من أجل تلك البركة وحدها تم إعلان «يوم الشكر» هذا، بشكل جيد لكل منا، إن كنت ستأتي معي يا رجلي فسوف أقدم لك غداء، يجعل كيانك الجسدي متوافقا مع كيانك الذهني».

كان هذا ما اعتاد الرجل المسن على قوله كل مرة، كل «يوم شكر»، طوال تسع سنوات، كانت الكلمات وحدها تشكل تقليدا. ما من شيء يمكن مقارنته بها سوى «إعلان الاستقلال». دائما كانت تشكل موسيقى في سمع «ستافي». أما الآن فقد رفع بصره إلى

(*) سانتوس ديمونت: ١٨٧٣ - ١٩٣٢، برازيلي، مخترع للمناطيد، والطائرات في فرنسا.

وجه الرجل المسن، بعينين متألمتين دامعتين. لسعه البرد، حين تساقط الثلج الرقيق على جبينه المتعرق.لكن الرجل المسن ارتعش وأدار ظهره للريح.

كان «ستافي» يتساءل دائما: لماذا كان الرجل المسن يقول كلامه بشكل مغرق في الحزن؟ لم يكن يعلم أن هذا يرجع إلى أنه كان يتمنى، في كل مرة، أن يكون له ابن يخلفه. ابن يأتي إلى هناك بعد رحيله... رجل يقف فخورا وقويا، أمام رجل ما يخلف «ستافي» ويقول له: «في ذكرى والدي»، ومن ثم تصبح تقليدا.

لكن لم يكن للرجل المسن أقارب. كان يعيش في غرفة مستأجرة في أحد منازل العائلة القديمة الخربة، في أحد الشوارع الهادئة، شرقي المنتزه. في الشتاء كان يحتفظ بالفوشية(*) في حافظ بحجم المبخرة. في الربيع كان يسير وسط استعراض عيد «الفصح». في الصيف كان يعيش في أحد البيوت الريفية في تلال «نيوجيرسي»، ويجلس على مقعد خيزران، متحدثا عن فراشه: «أورنيثو بيترا أمفريزيوس»، التي كان يأمل في العثور عليها، يوما ما. في الخريف كان يطعم «ستافي» غداء، هذه كانت كل مشاغل الرجل المسن.

رفع «ستافي» بصره إليه لمدة نصف دقيقة، وهو في غاية القلق والضعف، إشفاقا على نفسه، وكانت عينا الرجل المسن تتألقان ببهجة العطاء. كان وجهه يزداد تغضنا كل سنة، لكن ربطة عنقه السوداء الصغيرة، كانت أكثر أناقة من أي وقت آخر، وكان شاربه الأشيب مفتولا في نهايته، بشكل متناسق. بعد ذلك أصدر «ستافي»

(*) شجيرة ذات زهرات حمراء وأرجوانية.

صوتا كصوت بازلاء تغلي في وعاء. كان يعتزم التكلم، وحيث إن الرجل المسن كان قد سمع هذه الأصوات تسع مرات قبلا، فقد أولها محقا إلى صيغة القبول القديمة الخاصة بـ «ستافي»:

«شكرا يا سيدي سأذهب معك، وإني في غاية الامتنان، إنني أتضور جوعا يا سيدي».

دوخة التخمة لم تمنع «ستافي» من الاعتقاد بأنه يشكل أساسا لأحد التقاليد، وشهية «يوم الشكر» لم تكن ملكا له، إنها تعود من خلال كافة الحقوق المقدسة إلى أحد التقاليد، إذ لم تكن من خلال تمثال «التحديدات» الحقيقي، إلى هذا الرجل المسن الذي كان سبّاقا إليها. حقان فإن «أمريكا» حرة، ولكن حتى يرسي المرء تقليدا عليه أن يكون متكررا دائما - كسرا مكرورا(*). الأبطال ليسوا جميعا من الفولاذ أو الذهب. إليك واحدا هنا لا يستعمل إلا أسلحة من الحديد، ذات طلاء فضي باهت، ومن القصدير.

اقتاد الرجل المسن ضيفه السنوي جنوبا إلى المطعم، وإلى المائدة التي كان يجري العيد فوقها كل مرة، تعرف عليهما النادل وقال «ها هو صاحبنا المسن يأتي... كل عام، هذا الرجل يدعو ذاك الرجل بعينه، إلى وجبة كل يوم شكر».

جلس الرجل المسن إلى الجانب المقابل من المائدة، متألقا كلؤلؤة لامعة، في الركن الأساسي لتقليده القديم، الممتد إلى المستقبل. ملأ النادلون المائدة بطعام العيد، ورفع «ستافي» الشوكة والسكين بطريقة يخطئ الناظر فيظنها علامة جوع، وقطع لنفسه قطعة كبيرة من اللحم الخالد.

(*) الكسر المكرور: جزء من الكسر العشري المتكرر أو الدائري يتردد باستمرار.

ما من بطل باسل قاتل أبدا عبر صفوف العدو، بطريقته، الديك الرومي، أضلاع اللحم، أنواع الحساء، الخضار، الفطائر، كلها كانت تختفي من أمامه ما أن يتم تقديمها. كان متخما إلى أقصى حد تقريبا حين دخل المطعم، إلا أن رائحة الطعام أفقدته نبل السادة، فسابق كفارس حقيقي. رأى ملامح السعادة الناتجة عن الإحسان، تكسو وجه الرجل المسن - سعادة أكثر حتى من كل تلك التي تجلبها له «الفوشية»، أو «الأورنيثوبيترا أمفريزيوس» في أي وقت من الأوقات - ولم يكن يقوى على أن يراها تبهت.

وبعد ساعة أسند «ستافي» ظهره على المقعد بشرف من ربح معركة وأطلق الكلام كأنبوب يسرب البخار: «شكري وامتناني على وجبة من القلب». ثم وقف متثاقلا بعينين مغشيتين، واتجه إلى المطبخ. فأمسك به نادل وأداره بكل احترام ووجهه نحو الباب. عد الرجل المسن بعناية (١,٣٠) «دولار» من القطع النقدية الفضية، تاركا ثلاث «نكلات»(*) للنادل. وكما كانا يفعلان كل سنة، افترقا على الباب،الرجل المسن اتجه جنوبا، و«ستافي» شمالا، وعند أول منعطف، استدار «ستافي» وتوقف مدة دقيقة واحدة. وأخذ يشق أسماله كبومة تنتف ريشها، وسقط إلى الرصيف كحصان ضربته الشمس.

حين جاءت سيارة الإسعاف، أخذ الطبيب الشاب والسائق يجرانه، لاعنين هذا الوزن الثقيل، لم يكن هناك رائحة «شراب» تبرر نقله إلى سيارة الدورية، وهكذا ذهب «ستافي» ووجبتا الغداء اللتان تناولهما إلى المستشفى. وهناك ألقوه على سرير، وبدأوا

(*) النكلة: قطعة نقدية قيمتها خمسة سنتات.

فحصه لمعرفة ما إذا كان مصابا بمرض غريب، أملا في اقتناص فرصة بمشكلة، تعود عليهم ببعض القطع المعدنية.

يا للعجب! بعد ساعة جاءت سيارة إسعاف أخرى بالرجل المسن. وألقوه على سرير آخر، وأخذوا يتحدثون عن التهاب الزائدة الدودية، نظرا لكونه يبدو مناسبا للفاتورة. لكن سرعان ما قابل أحد الأطباء الشباب ممرضة شابة كان معجبا بعينيها، فتوقف للحديث معها عن الحالتين، قائلا: «ذلك الرجل المسن اللطيف هناك، الآن... إنك لا تفكرين في أنها كانت تقريبا، عبارة عن حالة جوع. أظن أنه يتحدر من عائلة عريقة. أخبرني أنه لم يتناول شيئا طوال ثلاثة أيام».

الورقة الأخيرة

في منطقة صغيرة غربي «ميدان واشنطن»، كانت الشوارع تمتد بجنون، مفضية إلى قطاعات مستطيلة صغيرة تدعى «أماكن»، وتتميز هذه «الأماكن» بزوايا وانعطافات غريبة. حتى أن أحد الشوارع يقطع نفسه مرة أو مرتين. ذات مرة، اكتشف أحد الفنانين ما في هذا الشارع من إمكانية قيمة، تخيل لو أن أحد الهواة يحمل ورقة نقدية لشراء الألوان، والورق، وقماش الرسم، فإنه في سيره المتعرج عبر هذا الطريق، سوف يجد نفسه فجأة راجعا، من دون أن ينفق «سنتا» واحدا على تلك الأشياء.

وهكذا سرعان ما أتى أهل الفن إلى منطقة «غرين ويتش» القديمة ليجوسوا خلالها طمعا في اصطياد النوافذ الشمالية، وجملونات(*) القرن الثامن عشر، والعليات الهولندية القديمة، والإيجارات المتدنية. بعد ذلك، اشتروا بعض الأقداح القصديرية، وطبقا أو اثنين من «الشارع السادس»، بسعر رخيص، فشكلوا «مستوطنة».

في الجزء العلوي من بناية آجرية، خفيضة عريضة، تتألف من ثلاثة طوابق، أقامت سو و جونزي محترفا(**) فنيا لهما. وجونزي هي تصغير لاسم جوانا. إحداهما كانت من ماين، والأخرى من كاليفورنيا، كانتا قد التقتا على مائدة مضيف في أحد فنادق

(*) الجملون: «الجزء الأعلى المثلث الزوايا، من جدار ملتق بسطحين منحدرين.

(**) استديو

الشارع الثامن، لتجدا أن ذوقيهما في الفن، وسلطة الهندباء، وشراب البيشوب متوافقان، مما ساعدهما على إقامة مخزن مشترك بينهما.

كان ذلك في شهر مايو. أما في نوفمبر، فقد وفد قادم خفي، كان يدعوه الأطباء «الالتهاب الرئوي»، وأخذ يتفشى بصمت واطراد في المستوطنة، مادا أصابعه المثلجة إلى واحد هنا وآخر هناك. وعلى امتداد الجانب الشرقي، كان هذا القادم الخطر يذرع الأماكن بوقاحة متناهية، طارحا ضحاياه بأعداد لا حصر لها، لكن قدميه كانتا تنتقلان ببطء عبر متاهة «الأماكن» الضيقة التي كستها الطحالب.

لم يكن السيد «الالتهاب» ما يمكن أن تدعوه رجل فروسية عريق. فبعض امرأة صغيرة، بدم رق بفعل رياح «كاليفورنيا»، كان يقصر عن أن يشكل «لعبة عادلة» بالنسبة إلى ذلك البائع الجوال، ذي القبضة الحمراء، والنفس القصير. إلا أنه طرح «جونزي»، فاستلقت بلا حراك فوق سريرها ذي الهيكل المطلي، ناظرة عبر زجاج نافذة العلية الصغيرة، إلى الواجهة الشاحبة للبيت الآجري المجاور.

في صباح أحد الأيام، دعا الطبيب «سو» إلى الردهة وقال لها، وهو يرفع بحاجبيه الكثين الأشيبين، ويهز ميزان الحرارة الخاص بعيادته ليخفض الزئبق فيه، «إن أمامها فرصة واحدة من - لنقل عشرة... وتلك الفرصة هي أن تريد هي نفسها الحياة. بهذه الطريقة، وحين يأتي ملك الموت، يتمسك الناس بجانب الطريق، الأمر الذي يجعل مخزون الأدوية بكامله يبدو سخيفا. سيدتك

الصغيرة اتخذت قرارها بأنها لا تريد أن تتحسن. هل هناك شيء ما مهم يجول بخاطرها.

قالت سو: «كانت تريد رسم خليج نابولي يوما ما؟».

- «رسم؟ - ماذا! أليس في ذهنها شيء يستحق أن تفكر به مرتين - رجل على سبيل المثال؟».

قالت سو وفي صوتها رنة كرنة القيثار: هل الرجل يستحق كل هذا التفكير؟ لا، يا دكتور، ليس هناك شيء من هذا القبيل».

أجاب الطبيب: «حسنا، إنها نقطة الضعف إذن. سوف أمارس ذلك العلم كله، وأبذل جهودي حتى أستخلص آخر قطرة منه. لكن كلما أخذت مريضتي تعد العربات في موكب جنازتها، فإنني سوف أطرح خمسين في المائة من قدرة الأدوية على الشفاء. إذا ما تمكنت من جعلها تسأل سؤالا واحدا عن طرد الملابس الشتوية الجديدة، فسوف أعدك بنسبة شفاء لها تبلغ الواحد إلى الخمسة، بدلا من الواحد إلى العشرة».

بعد أن ذهب الطبيب دخلت «سو» ورشة العمل، وحملت منشفة إلى وعاء به ماء. ثم سارت وهي تتمايل، ودخلت غرفة «جونزي» حاملة لوح الرسم الخاص بها، وهي تصفر لحنا موسيقيا.

كانت «جونزي» مستلقية تحت غطاء السرير لا تبدي حراكا، ملتفتة بوجهها ناحية النافذة. توقفت سو عن الصفير، ظانة إياها نائمة.

سوت وضع لوحها، وبدأت الرسم بالحبر مصورة قصة إحدى المجلات على الفنانين الشبان أن يشقوا طريقهم إلى الفن من خلال رسم صور لقصص المجلات التي يكتبها المؤلفون الشبان ليشقوا طريقهم إلى الأدب.

بينما كانت سو ترسم بنطالا أنيقا لاستعراض ركوب الخيل، ومونوكل على شكل البطل، وهو راعي بقر من «إيداهو»، إذا بها تسمع صوتا ضعيفا، يتكرر عدة مرات، فأسرعت نحو السرير.

كانت عينا جونزي مفتوحين على اتساعهما. كانت تنظر عبر النافذة، وتعد عدا تنازليا. كانت تقول «اثنتا عشرة» وبعد ذلك بقليل «إحدى عشرة»، ثم «عشرة» و «تسع» ثم «ثماني» و«سبع»، في وقت واحد تقريبا.

نظرت سو عبر النافذة. ماذا كان هناك للعد؟

لم يكن ثمة سوى ساحة مقفرة عارية، والجانب الفارغ من البيت الآجري، على مسافة عشرين قدما. كرمة لبلاب هرمة، تخشبت وذبلت عند الجذور، تسلقت نصف المسافة على طول الجدار الآجر. كان الخريف البارد قد ضرب أوراقها، من الكرمة وحتى فروعها التي تشبه هيكلا عظميا، تعلقت بالآجر المتفتت، وقد تعرت من الأوراق.

سألت سو: «ما الأمر يا عزيزتي؟».

قالت جونزي بصوت يشبه الهمس: ست ... إنها تسقط بشكل أسرع الآن. قبل ثلاثة أيام كان هناك حوالي المائة. لقد أصابني عدها بالصداع. لكن الأمر أصبح الآن سهلا. ها هي ورقة أخرى تسقط. بقي الآن خمس فقط».

- «خمس ماذا، يا عزيزتي؟ أخبري حبيبتك سودي»

- «أوراق. على كرمة اللبلاب. حين تسقط الورقة الأخيرة، يكون علي أنا أيضا أن أذهب. عرفت منذ ثلاثة أيام. ألم يخبرك الطبيب؟».

أجابت سو متذمرة باستخفاف كبير:

- «لم يسبق لي أن سمعت مثل هذا الهراء ... كيف يمكن لأوراق كرمة هرمة أن تؤثر في شفائك؟

- وأنت كنت تحبين تلك الكرمة كثيرا، أيتها الفتاة الشقية. لا تكوني ساذجة لقد أخبرني الطبيب هذا الصباح أن فرصك في الشفاء في الفترة الحالية هي... - لنرَ بالضبط ما قاله - هي عشرة إلى واحد! أن فرصتك، لنر... إنها فرصة جيدة كما هي حالنا في نيويورك حين نستقل سيارات الأجرة، أو نسير بمحاذاة بناية جديدة. حاولي أن تأخذي بعض الحساء الآن. ودعي سودي تعود إلى رسمها، حتى تستطيع أن تبيعه إلى المحرر، وتشتري النبيذ لطفلتها المريضة، وشرائح اللحم لنفسها الشرهة».

قالت «جونزي»، وهي لا تزال مثبتة ناظريها عبر النافذة: «لست بحاجة إلى أي نبيذ بعد الآن... ها هي واحدة أخرى تذهب. لا، لا أريد أي حساء. يبقى فقط أربع. أريد أن أرى الأخيرة تسقط قبل أن يحل الظلام. ثم أذهب أنا الأخرى».

قالت سو وقد انحنت فوق جونزي، يا عزيزتي، أتعدينني بأن تبقي عينيك مغمضتين، ولا تنظري عبر النافذة، حتى أنتهي من عملي؟ علي أن أسلم تلك الرسوم في موعد لا يتعدى الغد. أحتاج الضوء، وإلا رسمت الساتر»(*).

سألت «جونزي» ببرود: «ألا تستطيعين الرسم في الغرفة الأخرى؟».

(*) الستار الخشبي أو المعدني الذي يغطي النافذة. العامية «الأباجور»

أجابت سو: «أفضل أن أبقى هنا بجانبك... بالإضافة إلى أنني لا أريدك أن تواصلي النظر، إلى أوراق الكرمة التافهة تلك».

قالت «جونزي» مغمضة عينيها، ومستلقية شاحبة الوجه، بلا أي حراك، كتمثال وقع: «أخبريني بمجرد أن تنتهي، لأنني أريد أن أرى الورقة الأخيرة تسقط. تعبت من الانتظار. تعبت من التفكير. أريد أن أرخي قبضتي عن كل شيء، وأن أذهب مبحرة إلى الأسفل، الأسفل، تماما كواحدة من تلك الأوراق المسكينة المرهقة».

قالت سو: «حاولي أن تنامي... علي أن أدعو بيهرمان ليكون موديلا لي في رسم رجل المنجم الناسك. لن أغيب أكثر من دقيقة. لا تحاولي أن تتحركي حتى أعود».

كان «بيهرمان» العجوز رساما يعيش في الطابق الأرضي، تحت بيتهما. كان قد تجاوز الستين، » ...لحية تتحدر متموجة من رأس «ساتير»(*) على طول جسد شيطان. كان «بيهرمان» فاشلا في الفن. أربعون عاما وهو يدير الفرشاة، من دون أن يدنو بما فيه الكفاية ليلمس حاشية فستان محبوبته. كان دائما يوشك على رسم إحدى الروائع، لكنه لم يبدأ أبدا. طوال سنوات عديدة لم يرسم سوى أشكال غليظة، ضمن منحى تجاري أو إعلاني.

كان يكسب القليل من خلال عمله كـ «موديل» لأولئك الفنانين الشبان في المستوطنة، الذين لم يكن بمقدورهم دفع السعر الذي يطلبه رجل محترف. كان يشرب الخمر إلى حد الإفراط، ولا يزال يتحدث عن رائعته القادمة. ما تبقى من أوصافه، هو أنه كان رجلا صغيرا عجوزا متوحشا، يزدري - بشكل مرعب - مظهر

(*) شخص خرافي نصفه بشر ونصفه الآخر ماعز.

اللطف لدى أي شخص، ويعتبر نفسه كلبا خاصا يترصد لحماية الفنانتين الشابتين في المحترف أعلى بيته.

وجدت سو بيهرمان يفرح برائحة حب العرعر، في خلوته المضاءة بنور باهت. في إحدى الزوايا، انتصب قماش(*) أسود على منصة للرسم، كانت هناك طوال خمس وعشرين سنة، تنتظر الخط الأول لرائعة ذلك الرجل. حدثته عن وهم جونزي وكيف أنها كانت تخشى، وهي بالفعل رقيقة وهشة، أن تذهب بعيدا، حين أصبحت قبضتها الضعيفة على العالم تزداد ضعفا.

فما كان من بيهرمان العجوز، إلا أن دمعت عيناه المحمرتان، وصرخ معبرا عن استهجانه واستنكاره لمثل تلك التخيلات السخيفة.

صرخ قائلا: «ماذا! هناك أناس في هذا العالم على قدر من الجنون، بحيث يموتون بسبب أن الأوراق تتساقط من كرمة لعينة؟ لم أسمع بمثل هذا من قبل». لا، لن أقف كـ «موديل» لناسكك البليد. لماذا تسمحين لمثل هذه الأفكار السخيفة أن تدور برأسها؟ آه يا للآنسة جونزي المسكينة!».

قالت سو: «إنها على قدر كبير من المرض والضعف... وقد تركت الحمى عقلها معتلا ومليئا بالتخيلات الغريبة. حسنا جدا يا سيد بيهرمان، إن كنت غير مهتم بأن تقف للرسم، فلست بحاجة إلى ذلك، لكنني أرى أنك رجل عجوز سريع الاهتياج».

زعق «بيهرمان» قائلا: «إنك تتصرفين كما تتصرف النساء. من قال إني لن أقف للرسم؟ سيري، وسوف آتي معك، طوال نصف ساعة كنت أحاول أن أقول إنني مستعد للوقوف للرسم. يا ربي!

(*) Canvas

ليس من المعقول أن تقع فتاة طيبة كالآنسة جونزي فريسة للمرض. يوما ما سوف أرسم رائعتي، وسوف نذهب كلنا بعيدا. ياربا نعم».

عندما صعدا كانت جونزي «نائمة». جذبت سو المصباح إلى عتبة النافذة، وأشارت إلى «بيهرمان» لينتقل إلى الغرفة الأخرى. وهناك ألقيا النظر عبر النافذة على كرمة اللبلاب والخوف يسيطر عليهما. ثم نظر أحدهما إلى الآخر دقيقة من غير كلام. كان المطر البارد المتواصل ينهمر، ممتزجا بالثلج. كان «بيهرمان» يرتدي قميصه الأزرق القديم. أخذ مقعده على وعاء مقلوب، كالناسك العامل في المنجم يجلس على صخرة.

في صباح اليوم التالي، حين أفاقت سو من نوم استمر ساعة، وجدت «جونزي» قد فتحت عينيها على اتساعهما ببلادة، وهي تحدق في الساتر الأخضر المسدل.

أمرت هامسة:

«اجذبيه، أريد أن أرى».

أطاعتها سو والملل يسيطر عليها.

لكن، آه... بعد كل ذلك المطر المنهمر، وهبات الريح العاصفة، التي استمرت عبر الليل الطويل، هناك وقفت على الجدار الآجري وورقة لبلاب واحدة.

كانت آخر ورقة على الكرمة. كانت لا تزال تحمل لونا أخضر داكنا قرب ساقها، لكن بحواف متآكلة يشوبها اصفرار الانحلال والذبول. تدلت بجرأة من غصن، على ارتفاع حوالي عشرين قدما عن الأرض. قالت «جونزي»: إنها الورقة الأخيرة... اعتقدت أنها سوف تسقط حتما خلال الليل.

سمعت صوت الريح، إنها سوف تسقط اليوم، وأنا سأموت في الوقت ذاته.

قالت سو مائلة بوجهها إلى الوسادة: «يا عزيزتي، يا عزيزتي، فكري بي، إن كنت لا تريدين التفكير بنفسك. ماذا سوف أفعل من بعدك؟

لكن «جونزي» لم تجب، أكثر الأشياء توحدا في العالم، هي الروح حين تستعد للانطلاق في رحلتها الغامضة إلى البعيد. بدا أن الخيال يتملكها بقوة، بينما كانت الروابط التي تشدها إلى الصداقة والأرض تنحل، واحدة بعد الأخرى.

انقضى النهار، ولكن وحتى عبر نور الغسق، تمكنا من رؤية ورقة اللبلاب متعلقة بساقها على الجدار. ثم، مع حلول الليل ضعفت هبات رياح الشمال، بينما المطر ما زال يضرب النوافذ وينقر على الرفرف الهولندي المنخفض.

عندما أصبح النور كافيا أمرت «جونزي»، عديمة الرحمة، برفع الساتر. ورقة اللبلاب كانت لا تزال هناك. استلقت «جونزي» فترة طويلة وهي تنظر. ثم نادت على سو، التي كانت تحرك حساء الدجاج على فرن الغاز.

قالت جونزي: «لقد كنت فتاة سيئة... شيء ما جعل تلك الورقة تثبت هناك ليريني كم كنت شريرة. إنها خطيئة أن يريد المرء الموت. بإمكانك أن تأتيني ببعض الحساء الآن، وبعض الحليب وفيه قليل من النبيذ و ... لا، أحضري لي مرآة يدوية أولا، ثم رصي بعض الوسائد بجانبي، وسوف أجلس وأراقبك تطهين الطعام».

بعد ساعة قالت: سودي، إنني آمل أن أرسم خليج نابولي يوما».

جاء الطبيب عصرا، واستأذنت سو في الذهاب إلى الردهة

عند مغادرته. قال الطبيب، آخذا يد سو الرقيقة المرتعشة بيده: «ليس فرصة فحسب، بل حتى فرص... مع التمريض الجيد سوف تربحين. والآن علي أن أرى حالة أخرى، لدي في الطابق الأسفل. اسمه بيهرمان - فنان على ما أعتقد. الإلتهاب الرئوي أيضا. إنه رجل عجوز ضعيف، والنوبة حادة. ليس هناك أمل له، لكنه سيذهب إلى المستشفى اليوم، حتى ينال راحة أكبر.

في اليوم التالي قال الطبيب لـ سو، لقد زال الخطر عنها. لقد ربحت، التغذية والعناية الآن... هذا كل ما هنالك».

وفي ذلك العصر، جاءت سو إلى السرير، حيث رقدت جونزي تحيك قانعة وشاحا صوفيا للكتفين في غاية الزرقة، وعديم النفع تماما، ولفتها بذراعها، هي والوسائد وكل شيء.

قالت لها: «لدي شيء أقوله لك أيتها الفأرة البيضاء... لقد مات السيد بيهرمان بالالتهاب الرئوي اليوم في المستشفى. مرض قبل يومين فقط. وجده البواب صباح اليوم الأول في غرفته في الأسفل عاجزا يتألم. كان حذاؤه وملابسه مبتلة بسبب العاصفة الثلجية.

لم يستطع أحد أن يتخيل أين كان في مثل تلك الليلة الرهيبة. ثم وجدوا مصباحا لا يزال مضاء، وسلما كان قد سحب من مكانه، وبعض الفراشي المتناثرة، ولوحة ألوان باللونين الأخضر والأصفر ممتزجان فوقها. انظري عبر النافذة، ياعزيزتي، إلى ورقة اللبلاب الأخيرة على الجدار، ألم تتعجبي لمَ لا تهتز أو تتحرك حين كانت الريح تهب؟ آه، ياحبيبتي، إنها رائعة بيهرمان - رسمها هناك في الليلة التي سقطت فيها آخر ورقة!

الباب الأخضر

تخيل نفسك تسير هابطا شارع «برودواي» بعد العشاء، مخصصا عشر دقائق فقط لتدخين «السيجار»، وتفكر بحضور مسرحية مسلية، في طريق «فودفيل». فجأة تمسك يد بذراعك. تستدير لتنظر في العينين الرهيبتين لامرأة حسناء، رائعة تتزين بالماس وبـ «السمور» الروسي.

وبسرعة تضع في يدك فطيرة تحوي زبدة ساخنة، وتخرج مقصا صغيرا، وتقتطع الزر الثاني في معطفك، وتتلفظ عن قصد بكلمة واحدة «متوازي الأضلاع»، وبنعومة تطير عابرة الشارع وهي تنظر إلى الخلف بتوجس، إنها ستكون مغامرة خالصة فهل تقبل بها؟

لا ليس أنت إن وجنتيك ستحمران حرجا، وستواصل سيرك كالأغنام على طول شارع «برودواي»، ملقيا بالفطيرة إلى الأرض، متحسسا بعجز مكان الزر المقطوع. هذا ما سوف تفعله، إلا إن كنت واحدا من القلة المباركة، الذين لم تمت فيهم روح المغامرة الخالصة.

لم تعد هناك مغامرات حقيقية كهذه، تلك القلة المباركة الذين يرتدون الملابس الفاخرة، على غرار معظم رجال الأعمال، بأساليبهم حديثة الاختراع، قد خرجوا وراء الأشياء التي يريدونها: الذهب، الكؤوس المقدسة(*)، غرام النساء، الكنوز، الشهرة.

(*) الكأس المقدسة: هي الكأس التي شرب منها المسيح في العشاء المقدس، والتي راح المسيحيون فيما بعد يجاهدون في الحصول عليها، وتشير إلى كل ما يبحث عنه الإنسان بحثا طويلا جاهدا.

أما المغامر الحقيقي فيخرج بلا هدف، ولا حساب، ليلاقي قدره المجهول ويحياه.

ومثال جيد على هذا هو «الابن المسرف» حين باشر سيره عائدا إلى البيت. أما أنصاف المغامرين - ذوو الشجاعة والبهاء - فكانوا عديدين منذ الحروب الصليبية وحتى أيامنا هذه.

كانوا يمدون فنون التاريخ والأدب، وصنعة الأدب التاريخي، لكن كلا منهم كان أمامه جائزة ليربحها، هدف يسدد إليه، فأس يشحذها، سباق يجريه، تشكيلة من ورق اللعب يلقي بها، اسم ينقشه، حب يلتقطه، وبالتالي لم يكونوا أصحاب المغامرة الحقيقة.

في المدينة الكبيرة، تسير الروحان التوأمان «العاطفة» و«المغامرة» بعيدا بحثا عن أصحاب الجدارة من طلابهما. وبينما نجوب الشوارع نجدهما تختلسان النظر إلينا بمكر، وتتحديانا بعشرين أسلوبا مختلفا. ومن دون أن نعرف لماذا، نرفع بصرنا فجأة، لنرى في إحدى النوافذ وجها يبدو عليه أنه ينتمي إلى معرض اللوحات الحميمة الخاص بنا في أحد الشوارع النائمة، نسمع صرخة ألم وخوف شديدين، والسائق بدل أن يتوقف عند منعطفنا المألوف، ينزلنا أمام باب غريب، إذ يفتح لنا رجل مبتسم ويدعونا للدخول، وقصاصة ورق مكتوب عليها تهبط على أقدامنا من كوى الحظ العليا، ونتبادل اختلاس نظرات الكراهية الفورية، والحب، والخوف، مع أغراب مسرعين وسط جموع المارة، مطر فجائي يهطل علينا، ومظلتنا قد تكون تأوي ابنة البدر وابنة عم النظام الفلكي في كل زاوية تتساقط فيها المناديل، تشير الأصابع، وتحاصر

الأعين، ومفاتيح المغامرة الضائعة، الوحيدة، المذهلة، الغامضة، خطرة التغير، تنزلق بين أصابعنا.

إلا أن القليل منا يتحملون أتباعها، فمنذ الصغر وسطوة التقليد تثقل كاهلنا، ومع الأيام صرنا عبيدا لها، فنمر، ويوما ما نأتي، في نهاية حياة شديدة البلادة، لنفكر بأن حياتنا العاطفية ما كانت سوى بقايا مصغرة لزواج أو تطريز وردة جوري محفوظة في درج آمن.

كان «رودلف شتاينر» مغامرا حقيقيا. قليلة تلك الأماسي التي لم يخرج فيها من غرفته، بحثا عن «غير المتوقع» و«الخارق للعادة»، وبدا له أن أكثر الأشياء في الحياة أهمية، هو ما قد يكمن بالضبط في الركن المجاور. في بعض الأحيان، كان يقوده استعداده لتجربة القدر، إلى طرق غريبة.

- مرتان أمضى الليل في المحطات، ومرة بعد مرة، كان يجد نفسه نسخة ثانية من الأفاقين البارعين، وساعته وماله ذهبا ثمنا لإطراء زائد، لكن وبحرارة لا تتناقص، كان يأخذ كل رمية قفازا أمامه مأخذ المغامرة المرحة.

في إحدى الأماسي كان «رودلف» يتجول على طول أحد الشوارع التي تقطع المدينة، في الجزء المركزي الأقدم منها. كان تياران من الناس يملآن الرصيفين - المسرعون إلى البيت، والعابرون القلقون الذين هجروا البيت، في سبيل الاستمتاع بالترحاب الجميل لنور مائدة الضيوف، الذي يعادل ألف شمعة.

كان المغامر الشاب يتمتع بحضور ممتع، ويتحرك بهدوء يقظ. في النهار كان يعمل موظف مبيعات في متجر لبيع

البيانو، كان يرتدي ربطة عنق وقد شدت بحلقة من الياقوت، بدل أن تربط بدبوس مثبت. وذات مرة كتب إلى محرر إحدى المجلات، أن «اختبار حب جوني» بقلم الآنسة «ليبي» كان أكثر الكتب تأثيرا في حياته.

خلال سيره، جذب انتباهه اصطكاك أسنان عنيف، في حقيبة زجاجية، على الرصيف، وقد غمره شعور بالغثيان نحو أحد المطاعم، إلا أن النظرة الثانية كشفت عن الحروف الكهربائية للافتة أحد أطباء الأسنان، فوق الباب المجاور. وهناك وقف زنجي عملاق، مرتديا معطفا فاخرا مطرزا بالأحمر، و«بنطلونا» أصفر، وقبعة عسكرية، يوزع بحرية بطاقات على أفراد الجمع المارين أمامه.

كان ذلك الطراز من الإعلان عن عيادة طب الأسنان، مشهدا مألوفا بالنسبة إلى «رودلف». كان عادة يمر بموزع بطاقات طبيب الأسنان، من دون الالتفات إليه، لكن الليلة دفع الزنجي بواحدة من البطاقات في يده، برشاقة بالغة، جعلته يبقيها هناك، مبتسما بعض الشيء في وجه ذلك الرجل.

وبعد أن سار بضع ياردات، ألقى نظرة لا مبالية على تلك البطاقة. وفاجأه ما قرأه فيها، فأخذ يقلبها باهتمام. كان أحد وجهي البطاقة فارغا، وعلى الآخر كتبت كلمتا «الباب الأخضر»، ونظر أمامه فوجد، على بعد ثلاث درجات، رجلا يرمي البطاقة التي اعطاه الزنجي إياها حين مر به. التقطها «رودلف». كان مطبوعا عليها اسم طبيب الأسنان وعنوانه، والقائمة المعتادة لعمل «الحشوات» و«الجسور»، و«التلبيسات»، مع وعود مغرية بعمليات غير مؤلمة.

توقف موظف متجر البيانو في الزاوية بعض الشيء، ثم عبر الشارع، وسار بمقدار بناية، ثم عبر الشارع من جديد، وسار منضما إلى الجمع الصاعد من جديد. من دون أن يلاحظ الزنجي حين مر به في المرة الثانية، أخذ بغير مبالاة البطاقة التي أعطيت إليه، وبعد عشر خطوات نظر إليها متفحصا. بخط اليد نفسه الذي ظهر على البطاقة الأولى، كان مكتوبا عليها «الباب الأخضر»، وكانت ثلاث أو أربع بطاقات قد ألقيت إلى الرصيف من قبل المارة أمامه، وخلفه. وكانت تلك البطاقات قد وقعت ووجهها الفارغ إلى أعلى. قلّبها «رودلف» فوجدها جميعا تحمل الأسطورة المطبوعة عن عيادة طب الأسنان.

نادرا ما كان طيف المغامرة الكبير بحاجة إلى أن يومئ مرتين إلى «رودلف شتاينر»، تابعه الأصيل. لكنه كان قد أومأ مرتين، وفتح باب السؤال.

عاد «رودلف» ببطء إلى حيث كان يقف الزنجي العملاق بجانب حقيبة الأسنان المصطكة، حين مر هذه المرة لم يتلق أي بطاقة. ورغم ردائه الزاهي والمنمق، أبدى الرجل الأثيوبي كرامة طبيعية غريبة، أثناء وقوفه، مقدما البطاقات برقة إلى البعض، سامحا للآخرين بالمرور من دون إزعاج. وكل نصف دقيقة، كان يغني بصوت أجش، عبارة غير مفهومة، شبيهة بثرثرة سائقي السيارات، والأوبرا الكبيرة. ولم يقف الأمر عند حد حمله للبطاقة، بل بدا لـ «رودلف» أنه قد تلقى من السحنة السوداء الكثيفة اللامعة، نظرة ازدراء مترفع بارد.

لسعت النظرة المغامر. قرأ فيها اتهاما صامتا بأنه قد ضبط متلبسا بالرغبة. وأيا ما كانت تعنيه الكلمات الغامضة المكتوبة من بين الزحام لتلقيها، وبدا الآن أنه قد أدانه بفقدان الذكاء والروح اللازمين، للمشاركة في ذلك اللغز.

مبتعدا عن الجمع المندفع، أجرى الشاب تحديدا سريعا للبناية، التي ظن أن على مغامرته أن تكون كامنة فيها. كانت ترتفع خمسة طوابق، وكان مطعم صغير يحتل سرداب البناية.

بدا الطابق الأول، وهو مغلق الآن، أنه يحتوي على قبعات أو فرو. والطابق الثاني، من خلال وميض الحروف الكهربائية، يبدو أنه عيادة طبيب الأسنان. وفوق هذا كان خليط متعدد اللغات من اللافتات يتعارك ليشير إلى محلات قراء الكف، والخياطين، والموسيقيين، والأطباء. وفي الأعلى كانت الستائر المسدلة، وزجاجات الحليب البيضاء، على النوافذ تعلن أن الأماكن منازل مأهولة.

بعد الانتهاء من مسحه، صعد «رودلف» بحيوية الدرجات العليا إلى المنزل. صعد درجتين مكسوتين بالبسط، وواصل حتى انتهى إلى القمة، فتوقف. كانت الردهة مضاءة بنور ضعيف يصدر عن مصباح من الغاز - أحدهما بعيد إلى يمينه، والآخر قريب إلى يساره. نظر إلى الضوء الأقرب ورأى تحت هالته الشاحبة، باباً أخضر.

تردد دقيقة، ثم بدا عليه أنه رأى الاستهزاء المهين، الصادر عن لاعب البطاقات الأفريقي، فسار إلى الأمام نحو الباب الأخضر، وطرقه.

لحظات كتلك التي مرت به من قبل أن يجاب طرقه للباب، شهدت سرعة التنفس التي ترافق المغامرة الحقيقية. ما الذي لا يمكن أن يكون موجودا وراء هذه الأفاريز الخضراء: مقامرون يلعبون، محتالون ماكرون، يضعون الطعم في أفخاخهم بمهارة فائقة، جمال واقع في حب الشجاعة، وهكذا يخطط كي يكون هدفه، الخطر، الموت، الحب، خيبة الأمل، الاستهزاء ... إلخ، أي من هذه الأشياء، يمكن أن يجيب ذلك الطارق المتهور؟!

سمع صريرا ضعيفا، وفتح الباب ببطء. فتاة لا تكاد تبلغ العشرين، وقفت هناك بوجه شاحب، وقوام يترنح، أرخت مقبض الباب، وترنحت بضعف، متلمسة الجدار بيد واحدة. أمسك بها «رودلف» وألقاها فوق مقعد ملتصق بالجدار. أغلق الباب، وألقى نظرة خاطفة على الغرفة، تحت ضوء المصباح المرتعش. الأناقة، لكن الفقر المدقع، كانت القصة التي قرأها.

كانت الفتاة لا تزال مستلقية، كما لو كانت مغمى عليها. نظر «رودلف» في أنحاء الغرفة بحثا عن «برميل». يجب أن يلف الناس حول البرميل ... لا، لا، أولئك هم الأشخاص الذين تعرضوا للغرق.

أخذ يروح لها بقبعته، ونجح في ذلك حيث ضرب أنفها بحافة القبعة، ففتحت عينيها. وبعد ذلك رأى الشاب أن وجهها، كان حقا الوجه الناقص من معرض قلبه للوحات الحميمة: العينان الرماديتان الصريحتان، والأنف الصغير الممتد بجرأة إلى الخارج، الشعر الكستنائي المتغصن كعروق الكرمة، كلها تبدو النهاية الطبيعية، والجائزة الصحيحة، لجميع مغامراته الرائعة. إلا أن الوجه يبدو ضامرا شاحبا تكسوه الكآبة.

نظرت إليه الفتاة بهدوء، ثم ابتسمت سائلة بضعف: «أغمي علي، أليس كذلك؟ حاول أن تبقى، دون أن يكون لديك ما تأكله، طوال ثلاثة أيام، وانظر ما يكون؟».

قال «رودلف» متعجبا، وقد قفز من مقعده: «م م م م ... انتظري إلى أن أعود».

واندفع خارجا من الباب الأخضر، وهابطا الدرج. بعد عشرين دقيقة عاد، طارقا الباب بقدمه. وبكلتا ذراعيه كان يحمل كومة من المأكولات جلبها من محل البقالة والمطعم.

وضعها على المائدة ... الخبز، الزبدة، اللحوم، الكعك، الفطائر، المخللات، المحارات، دجاجة مشوية، زجاجة حليب، زجاجة شاي أحمر ساخن.

قال «رودلف» بصوت قوي: «هذا سخف أن تبقي دون طعام. عليك أن تتوقفي عن ممارسة مثل هذه الرهانات الاختيارية، العشاء جاهز».

ساعدها على الجلوس على أحد مقاعد المائدة، وسأل: «هل لديك قدح للشاي؟».

أجابته: «على الرف، بمحاذاة النافذة».

حين عاد ومعه القدح، رآها، وعيناها تلتمعان بنشوة، وهي تلتهم إحدى قطع المخلل الكبيرة، أخرجتها من الأكياس الورقية بغريزة المرأة التي لا تخطئ، أخذها منها وهو يضحك، وملأ القدح حتى منتهاه بالحليب، آمرا إياها:

«اشربي هذا أولا، ثم ستشربين بعض الشاي، ثم ستتناولين جناح دجاجة. وإذا كانت حالتك جيدة جدا فسوف تتناولين

قطعة مخلل غدا. والآن، إن سمحت لي بأن أكون ضيفك، فسوف نتناول العشاء».

سحب المقعد الآخر، وجعل الشاي عيني الفتاة تشرقان، وأكسب وجنتيها بعض الاحمرار. أخذت تأكل بشيء من الضراوة الجميلة، مثل بعض الحيوانات الجائعة. بدا أنها اعتبرت وجود الشاب، والعون الذي قدمه لها، أمرا طبيعيا، ليس من باب عدم التقيد بالآداب الاجتماعية، بل من باب أن الضغط الشديد، الذي كانت تعاني وطأته، أعطاها الحق بأن تستبدل التصنع بالإنسانية.

لكن تدريجيا، ومع عودة قواها وارتياحها إليه أخذ يراودها شيء من الشعور بالآداب الاجتماعية التي تؤمن بها، وأخذت تقص عليه حكايتها الصغيرة.

كانت واحدة من ألف حكاية مشابهة، تشهدها المدينة كل يوم ... حكاية فتاة المحل بالأجر غير الكافي، والذي تقتص منه «الغرامات» التي تضاف إلى ما يحققه المحل من الأرباح، والوقت الضائع خلال المرض، ثم من المواقع المفقودة، والأمل المفقود ... وطرق المغامر على الباب الأخضر.

لكن في نظر «رودلف»، فقد بدت الحكاية كبيرة كما «الإلياذة» أو الأزمة في «اختبار حب جوني».

قال متعجبا: «أفكر بك وقد عانيت ذلك كله».

قالت الفتاة بخشوع: «لقد كانت تجربة قاسية».

سأل: «أوليس لك أقارب أو أصدقاء في المدينة؟».

- «لا شيء من هذا كله».

قال «رودلف» بعد فترة من الصمت:

«إنني أنا الآخر وحيد كليا في هذا العالم».

قالت الفتاة على الفور: «إنني سعيدة بهذا».

وسر الشاب أن يسمع أنها راضية عن حالة الحرمان التي يعيشها.

فجأة أطبقت جفنيها وتنهدت بعمق: «إنني أشعر بالنعاس الشديد». «إنني مرتاحة تماما».

وقف «رودلف» وأخذ قبعته قائلا: «سوف أقول تصبحين على خير. النوم الطويل سوف يفيدك».

مد لها يده، فأخذتها وقالت: «تصبح على خير»، لكن عينيها تسألان بكل وضوح، وكل صراحة، وبعاطفة جياشة، حتى أنه أجابها بالكلمات:

آه، إنني عائد غدا لأرى كيف تسير أمورك، إنك لا تستطيعن التخلص مني بهذه السهولة.

ثم، وعلى الباب، كما لو كانت طريقة قدومه، أقل أهمية بكثير، من حقيقة قدومه نفسها، سألته:

«كيف صادف وأن طرقت بابي؟».

نظر إليها دقيقة، مستعيدا ذكرى البطاقات، وشعر بألم الغيرة يفاجئه. كيف لو وقعت تلك البطاقات في أيدي مغامرين آخرين مثله؟ وبسرعة قرر أنها يجب ألا تعرف الحقيقة أبدا، لن يتركها تعرف أبدا أنه كان على دراية بالوسيلة الغريبة التي انساقت إليها بفعل أزمتها الرهيبة.

«أحد ملحني البيانو لدينا يعيش في هذا المنزل، وقد طرقت بابك من قبيل الخطأ».

وآخر ما رآه في الغرفة، قبل إغلاق الباب الأخضر، كان عينيها.

في أعلى الدرج توقف برهة، ونظر باستغراب حوله. ثم سار على طول الردهة حتى نهايتها الأخرى، وعاد صاعدا إلى الطابق الأعلى، وواصل اكتشافاته الحيرى. كل باب وجده في المنزل، كان مطليا بالأخضر.

متحيرا، سار على الرصيف. كان الأفريقي الرائع لا يزال هناك، تصدى له «رودلف» ببطاقتيه في يده:

سأله: «هل لك أن تخبرني لم أعطيتني هذه البطاقات، وما تعني؟».

وبابتسامة طيبة عريضة، عرض الزنجي إعلانا بهيا يخص مهنة سيده، وقال مشيرا إلى نهاية الشارع:

«إنه صاحب العمل يا عزيزي، لكنني أظن أنك متأخر بعض الشيء، عن المشهد الأول».

نظر «رودلف» إلى حيث أشار الرجل، فرأى فوق مدخل أحد المسارح، اللافتة الكهربائية المتوهجة، تعلن عن المسرحية الجديدة «الباب الأخضر».

قال الزنجي: «أخبروني أنه عرض من الدرجة الأولى. المندوب الذي يمثله أعطاني دولارا يا سيدي، لتوزيع بعض من بطاقاته، مع بطاقات الطبيب. هل لي أن أعطيك إحدى بطاقات الطبيب، يا سيدي؟».

في زاوية البناية التي يسكن فيها، توقف رودلف من أجل كأس من البيرة، وسيجار. ثم خرج و«سيجاره» مشتعل.

أحكم أزرار معطفه، دفع قبعته إلى الخلف، وقال مخاطبا عمود الكهرباء في الزاوية بقوة:

«سيان، أعتقد أنها يد القدر التي أخرجتني في طريقي، وساقتني إلى حيث أجدها».

هذه هي النتيجة التي خلص إليها «رودلف شتاينر» في ظل تلك الظروف، مقدما اعترافه القاطع هذا، إلى الأتباع الحقيقيين للعاطفة والمغامرة.

ألف دولار

كرر المحامي تولمان بخشوع وقسوة «ألف دولار وإليك المبلغ».

أصدر غليليان الشاب ضحكة مفتعلة، بينما كان يتلمس بأصابعه الرزمة الرقيقة لأوراق الخمسين دولارا.

قال بابتهاج موضحا للمحامي:

«إنه مبلغ تافه مخز. لو كان عشرة آلاف، لكان الواحد يطلق الكثير من الألعاب الناريةً، ويجعل لنفسه رصيدا، حتى الخمسين دولارا كانت ستكون أقل مشقة».

واصل المحامي تولمان بأسلوبه المهني الجاف:

«لقد سمعت قراءة وصية عمك، لا أعرف إن كنت قد أوليت تفاصيلها الانتباه الكافي» علي أن أذكرك بواحد منها، عليك أن تقدم لنا حسابا للطريقة التي سوف تنفق بها الألف دولار هذه، ما إن تنتهي من إنفاقها، الوصية تشترط هذا. إنني على ثقة من أنك سوف تلتزم بتنفيذ رغبات السيد غليليان الراحل.

رد الشاب بأدب: «يمكنك أن تطمئن إلى ذلك، رغم ما سوف يتطلبه الأمر من نفقة إضافية، فقد يترتب علي أن استخدم سكرتيرة، ذلك أنني لست جيدا أبدا في الحسابات».

ذهب غليليان إلى ناديه، وهناك اقتنص رجلا كان يدعوه «برايسون العجوز». وكان برايسون العجوز هذا رجلا هادئا، في الأربعين من عمره، ومتقاعدا، كان يجلس في إحدى الزوايا يقرأ كتابا، وحين رأى غليليان يتقدم نحوه تنهد، ووضع كتابه جانبا ورفع نظارته.

قال غليليان: «استيقظ يا برايسون العجوز». لدي قصة طريفة أحكيها لك.

قال «برايسون العجوز»: لو أنك تحكيها لواحد من الذين في غرفة البلياردو. إنك تعلم كم أكره قصصك».

قال غليليان وهو يلف سيجارة: «هذه واحدة أفضل من التي اعتدت عليها، ويسعدني أن أحكيها لك، إنها أكثر إيلاما وطرافة، من أن تضيع وسط ضجيج كرات البلياردو، لقد جئت للتو من مؤسسة القرصنة القانونية، التي أوكلها عمي الراحل، لقد ترك لي ألف دولار، لا أدري ماذا يمكن لرجل أن يفعل بألف دولار؟

قال «برايسون العجوز» وقد بدا عليه الاهتمام، كنحلة في إبريق خل: «كنت أعتقد أن سيبتيموس غليليان الراحل يساوي حوالي نصف المليون».

«نعم» قالها غليليان فرحا: «كان كذلك، وهذه هي المفارقة لقد ترك الحمولة الذهبية كلها لإحدى الجراثيم، وهذا يعني أن جزءا منها يذهب إلى رجل يخترع نوعا جديدا من البكتيريا، والبقية لتأسيس مستشفى للتخلص منها أيضا، وهناك كبير الخدم، ومدبرة المنزل، ويأخذ كل منهما خاتما منقوشا، وعشرة دولارات، وابن أخيه يأخذ ألف دولار.

فرد عليه «برايسون العجوز»: «لقد كان لديك دائما مال تنفقه».

قال غليليان: «نعم لدي أطنان، لقد كان عمي عرابا من الجن، فيما يتعلق بالمصاريف».

سأل «برايسون العجوز»: «أما من ورثة آخرين؟».

تجهم غليليان ضاغطا على سيجارته، ورفس برجله ضاربا أحد المقاعد بقلق، قائلا:

«ما من أحد، هناك الآنسة هايدن، وصيفة لعمي، كانت تعيش في منزله، إنها هادئة جدا - تحب الموسيقى - ابنة رجل على قدر كبير من سوء الحظ، يكفي لجعله صديقا له. نسيت أن أقول إنها كانت على وصية الخاتم المنقوش والدولارات العشرة أيضا.

أتمنى لو كنت أنا الآخر كذلك. لكنت قد اشتريت زجاجتي «بروت»، وكافأت النادل بالخاتم، ونفضت يدي من الأمر كله. لا تتعال يا برايسون العجوز... أخبرني ماذا بإمكان المرء أن يفعل بألف دولار؟».

مسح برايسون العجوز نظاراته وابتسم. وغليليان يعرف أن «برايسون العجوز» حين يبتسم فإنه يعتزم أن يكون عدوانيا أكثر من أي وقت آخر.

قال: «ألف دولار» تعني الكثير أو القليل، قد يشتري المرء بيتا يعيش سعيدا به، ويستمتع في روكفلر. ورجل آخر قد يرسل زوجته إلى الجنوب، فينقذ حياتها. ألف دولار يمكنها أن تشتري حليبا صافيا لمائة طفل خلال يونيو ويوليو وأغسطس، فتنقذ خمسين حياة. يمكنها أن تعطيك فرصة للعب الورق مدة نصف ساعة، في أحد معارض الفن الحصينة، يمكنها أن توفر التعليم لولد طموح، قيل لي إن لوحة أصلية لـ «كوروت»، تم بيعها بذلك المبلغ في إحدى قاعات المزاد أمس. يمكنك أن تنتقل إلى بلدة «نيوهامبشاير» وتعيش سنتين بها، يمكنك أن تستأجر حديقة حيوان «ماديسون» لليلة واحدة بها، وتخطب في جمهورك، إن كان

سيكون لك جمهور، عن عدم الاستقرار الذي تتصف به مهنة الوريث المفترض».

قال غليليان من غير انزعاج تقريبا: «قد يحبك الناس إن لم تكف عن إلقاء الخطب الأخلاقية، فإنني طلبت منك أن تخبرني، ماذا يمكنني أن أفعل بألف دولار».

قال برايسون بضحكة لطيفة «أنت؟... لمَ يا بوبي غليليان؟ أمامك عمل واحد منطقي يمكنك أن تقوم به. يمكنك أن تشتري للآنسة لوتا لوريير عقدا يحمل ماسة بذلك المبلغ، ثم تأخذ نفسك إلى إيداهو وتشتري مزرعة كبيرة.

وأنصح بمزرعة أغنام، حيث إنني أكن كراهية لها.

نهض غليليان قائلا: «شكرا... كنت أظن أن بإمكاني الاعتماد عليك، يا برايسون العجوز، إنك ضربت على الوتر الحساس. كان بودي أن أنفق المال دفعة واحدة وعلي أن أقدم به بيانا، وإني أكره التفصيل في بنود».

طلب غليليان سيارة «تاكسي» وقال للسائق:

«المدخل الخلفي لمسرح كولمباين».

كانت الآنسة لوتا لوريير تزيد من فتنتها بمسحة من «البودرة»، وقد جهزت نفسها تقريبا للظهور في عرض حاشد، حين ذكرت وصيفتها اسم السيد غليليان، قالت الآنسة لوريير: «دعيه يدخل. و الآن ما الأمر يا بوبي؟ علي أن أكون على خشبة المسرح بعد دقيقتين».

انتقدها غليليان مقترحا: «امسحي أذنك اليمنى قليلا... هذا أفضل. لن يستغرق الأمر بالنسبة إلي دقيقتين. ماذا تقولين في

عقد يحمل شيئا صغيرا؟ يمكنني أن أحتمل ثلاثة قطع بواحدة كبيرة في المقدمة».

أخذت الآنسة لوريير تترنم قائلة:

«آه، كما تود أنت... قفازي الأيمن يا آدامز. قل لي يا بوبي، هل شاهدت العقد الذي كانت ترتديه ديللا سيتسي في تلك الليلة؟

إنه يكلف اثنين وعشرين ألف دولار في محلات تيفاني. لكن طبعا... اسحب حزامي قليلا إلى اليسار يا آدامز».

صرخ المنادي «الآنسة لورييز لجوقة الافتتاح!».

سار غليليان إلى حيث ينتظره التاكسي، سأل السائق: لو حصلت على ألف دولار، فماذا كنت ستفعل بها؟».

قال السائق بصوت أجش على الفور: «افتح صالونا... أعرف مكانا يمكن أن استثمر فيه بكل ما أملك. إنها بناية من أربعة طوابق، على منعطف أحد الشوارع، لقد حسبتها: «الطابق الثاني - الحواجب، الطابق الثالث - طلاء الأظافر، الطابق الرابع - قاعة سباحة. إن كنت تفكر بإيقاف السيارة.

قال غليليان: «آه لا... فقط سألت من باب الفضول، إنني متفق معك على أساس الساعة. واصل القيادة إلى أن أطلب منك التوقف».

بعد ثماني بنايات على طول شارع «برودواي» حرك المصيدة بالعصا، وغادر السيارة.

وجد رجلا ضريرا، جالسا على مقعد على الرصيف يبيع الأقلام، ذهب غليليان إليه، وتوقف عنده.

قال له: «اسمح لي، لكن هل لك أن تخبرني، ماذا كنت ستفعل لو حصلت على ألف دولار؟».

سأل الرجل الضرير: «لقد ترجلت من ذلك التاكسي الذي تركك تنزل هنا أليس كذلك؟».

قال غليليان: «نعم».

قال بائع الأقلام: «أعتقد أنك ميسور الحال، إذ تركب سيارة تاكسي في النهار. الق نظرة على هذا إن كنت ترغب».

أخرج دفترا صغيرا من جيب معطفه، وقدمه إليه، فتحه غليليان فوجد أنه دفتر إيداع بنكي وفيه كان رصيد الرجل الضرير ١٧٨٥ دولارا.

أعاد غليليان «الدفتر» وعاد إلى السيارة. قال للسائق: «لقد نسيت شيئا. يمكنك أن تتجه إلى مكاتب المحاميين تولمان وشارب في «برودواي»».

نظر إليه المحامي «تولمان»، عبر نظارته ذات الإطار الذهبي، نظرة عداء وتساؤل.

قال غليليان بمرح: «أرجو المعذرة، لكن هل لي أن أسألك سؤالا؟ إنه ليس السؤال الوقح، كما آمل، هل تركت وصية عمي للآنسة «هايدن» أي شيء بالإضافة إلى الخاتم الدولارات العشرة؟

قال تولمان: لا... لا شيء.

قال غليليان: أشكرك جزيل الشكر، وخرج عائدا إلى سيارته. أعطى السائق عنوان بيت عمه الراحل.

كانت الآنسة هايدن منهمكة في كتابة الرسائل في المكتبة. كانت صغيرة القد ونحيلة، ترتدي الأسود. لكن لو رأيتها ستلاحظ عينيها. انجرف غليليان مع نظرته إلى العالم باعتباره لا يقوم على أساس الانسجام والتناسق.

شرح لها الأمر قائلا: «لقد جئت لتوي من مكتب تولمان العجوز. كانوا يراجعون الأوراق هناك. وجدوا أن... وبحث غليليان في ذاكرته عن تعبير قانوني «وجدوا تصحيحا أو ملحقا أو شيئا ما للوصية. بدا العجوز وقد أرخى قبضته بعض الشيء عند إعادة التفكير، وأوصى عمي لك بألف دولار. كنت آتيا من هذا الطريق وطلب مني تولمان أن أحضر لك المال. ها هو، من الأفضل أن تعديه لتري إن كان صحيحا، وضع غليليان المال بجانب يدها على المكتب.

شحب لون الآنسة هايدن، وقالت «آه!» ثم كررتها مرة ثانية «آه!».

استدار غليليان نصف استدارة، ونظر عبر النافذة، قال بصوت خفيض: «أفترض، بطبيعة الحال، أنك تعرفين أنني احبك».

قالت الآنسة هايدن، بينما كانت تأخذ مالها: «أنا آسفة».

سأل غليليان بقلب واهن: «أما من جدوى؟».

قالت مرة أخرى: «أنا آسفة».

سأل غليليان مبتسما: «هل لي أن أكتب ملاحظة؟».

أجلس نفسه على منضدة المكتبة الكبيرة وزودته هي بالورق والقلم، ثم عادت إلى سكرتيرتها.

أجرى غليليان حساب إنفاق للألف دولار بالكلمات التالية:

«دفعت من قبل الخروف الأسود (*)، روبرت غليليان، ألف دولار على حساب السعادة الأبدية، التي تدين بها السماء إلى أفضل وأعز امرأة على الأرض».

وضع غليليان ما دونه في مغلف، وانحنى ثم سار في طريقه.

توقفت سيارته مرة أخرى عند مكاتب «تولمان وشارب». وقال

(*) شخص تافه من أسرة محترمة.

بابتهاج لـ «تولمان» صاحب النظارة المذهبة: «لقد أنفقت الألف دولار، وجئت لأسلم حسابا بها، كما تم الاتفاق».

وألقى بمغلف أبيض على منضدة المحامي، وقال: «سوف تجد مذكرة، يا سيدي، فيما يخص طريقة عمل الدولارات المختفية».

ومن دون أن يمس المغلف، ذهب السيد تولمان إلى أحد الأبواب ودعا شريكه «شارب» ومعا عملا على اكتشاف كهوف خزنة حديدية ضخمة. وإلى الأمام جذبا غنيمة بحثهم، ألا وهي مغلف كبير مختوم بالشمع. ثم قاما بغزوه بالقوة، وهزا رأسيهما معا فوق محتوياته. بعد ذلك أصبح تولمان هو الناطق، فقال بشكل رسمي: «أيها السيد غليليان... هناك ملحق لوصية عمك. عهد به إلينا بشكل خاص، مع تعليمات بعدم فتحه حتى تزودنا بحساب كامل لإنفاقك الألف دولار، المنصوص عليها بالوصية.

وبما أنك قد وفيت بالشروط فقد قرأت أنا وشريكي الملحق، لا أريد أن أثقل على استيعابك بتعابيرها القانونية، لكنني سأطلعك على روح محتوياتها باختصار.

«إذا كان إنفاقك للألف دولار يبين أنك تمتلك أيا من المؤهلات التي تستحق المكافأة فإن الكثير من المال سوف يؤول إليك. تم تعييننا أنا والسيد شارب قاضيين، وأؤكد لك أننا سوف نقوم بواجبنا، ملتزمين التزاما صارما بالعدالة - مع الكرم. لسنا على الإطلاق متحيزين ضدك، يا سيد غليليان. لكن دعنا نعود إلى نص الملحق، إذا كان إنفاقك المال، موضع السؤال، حصيفا، أو حكيما، أو غير أناني، فإن من صلاحياتنا أن نحول إليك سندات بقيمة خمسين ألف دولار، وضعت بين يدينا لذلك الغرض. لكن

إذا - وكما يشترط وكيلنا السيد غليليان الراحل بوضوح - كنت قد أنفقت هذا المبلغ - كما كنت تنفق المال في السابق - فإنني أورد نص السيد غليليان الراحل - بتبديده تبديدا يستوجب التقريع، بين زملاء سيئي السمعة - فإن مبلغ الخمسين ألف دولار سوف يدفع إلى «ميريام هايدن»، وصيفة السيد غليليان الراحل، من دون تأخير.

والآن يا سيد غليليان، أنا والسيد شارب سوف نفحص حسابك فيما يتعلق بالألف دولار.

لقد قدمت حسابا مكتوبا بها، كما أعتقد.

إنني آمل أن تمنح قرارنا ثقتك.

امتدت يد السيد تولمان إلى المغلف، لكن غليليان كان أسرع منه في أخذه، مزق الحساب وغلافه إلى قطع صغيرة على مهل ثم وضعها في جيبه، قال مبتسما: «حسنا... ليس هناك أي داع لإزعاجك بهذا، لا أفترض أنك سوف تفهم هذه المراهنات المفصلة في بنود. على أي حال، لقد خسرت الألف دولار في المراهنات، يوم سعيد لكما أيها السادة».

هز «تولمان» و«شارب» رأسيهما بأسف، حين غادر غليليان لأنهما سمعاه يصفر بمرح في القاعة، بينما كان ينتظر المصعد.

المؤلف في سطور

«أو. هنري» هو الاسم الأدبي لكاتب القصة الأمريكي الأصل وليام سيدني بورتر.

● ولد في ولاية كارولينا الشمالية عام ١٨٦٢ - الولايات المتحدة الأمريكية.

● كتب «أو. هنري» كثيرا من القصص القصيرة، يصل عددها إلى ستمائة قصة. ترجم معظمها إلى اللغات الأجنبية كالفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية والسويدية والنرويجية واليابانية والصينية والروسية.

المترجم في سطور

محمد ناصر صلاح.

● من الجمهورية العربية السورية.

● له العديد من المشاركات في الصحف والمجلات العربية والسورية.

المراجع في سطور

د. عبدالمحسن دشتي.

● من مواليد عام ١٩٥٤، دولة الكويت.

● حاصل على شهادة البكالوريوس في الأدب واللغة الإنجليزية - جامعة الكويت، والماجستير في طرق تدريس اللغة الإنجليزية، جامعة كولورادو - الولايات المتحدة الأمريكية، وشهادة دكتوراه الفلسفة في اللغويات، جامعة إسكس - بريطانيا.

● يعمل حاليا رئيس قسم اللغة الإنجليزية في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي.

● له العديد من البحوث والدراسات المنشورة منها: الإبقاء أو التحول اللغوي في الكويت - المزج اللغوي عند بعض العائلات الكويتية.

الفهرس

إبداعات عالمية

351

روض الأدب

(مختارات قصصية)

يحوي هذا العدد بين دفتيه مختارات قصصية قصيرة لصاحب الدور الريادي في ميدان الأدب الإنساني، كاتب القصة الأمريكي «أو. هنري».

استطاع «أو. هنري» أن يخلق له نمطا فريدا في الكتابة خاصا به، يتسم بالبساطة والوضوح، ويتخلله - بين الحين والآخر - الكثير من التورية والتلاعب اللفظي، بغرض تعزيز روح الفكاهة التي غالبا ما تتحلى بها قصصه.

كما تحتوي قصص «أو. هنري» على العبرة التي يستنير بها الفرد، كبيرا كان أو صغيرا، رجلا كان أو امرأة، ذلك لأنها تنقل قصصا من صميم الواقع، وتكشف خبايا النفس الإنسانية، خاصة خلال حالة الأزمة وتجربة المعاناة لدى الإنسان.

إن روح الإنسانية العميقة التي تتسم بها قصصه، تفرض على القارئ أن يتعامل معها لا باعتبارها مادة تسلية وترفيه، ولكن باعتبارها مادة تثقيف فكري، وتطوير خلقي، وتوجيه حياتي، لا بد منها لكل من يعتقد أن للحياة الإنسانية قيمة ورسالة.

ردمك: ٩٩٩٠٦ - ٠ - ١٥٠ - X
ISBN: 99906 - 0 - 150 - X